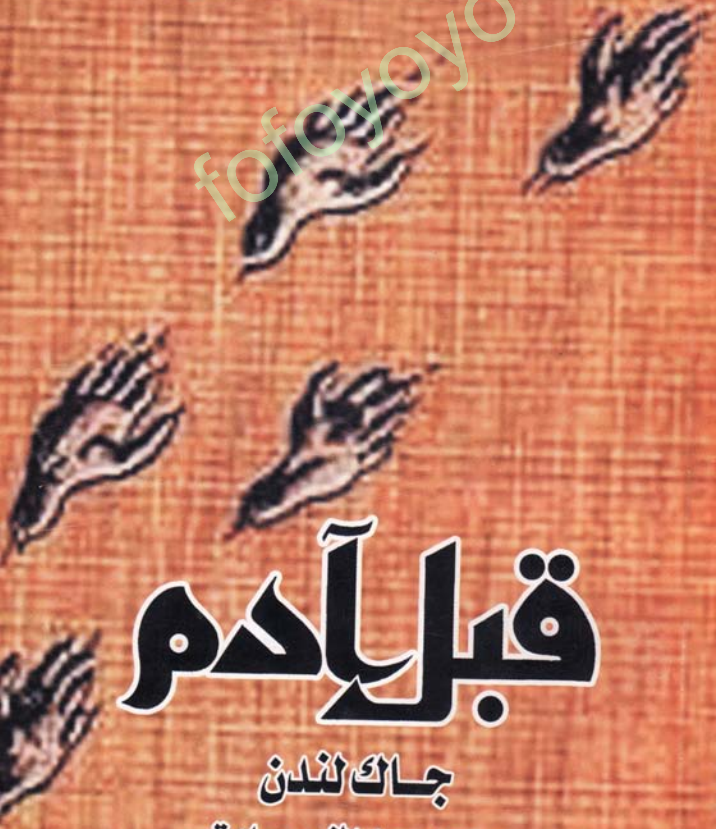
روايات الهلال



قبل آدم

جاك لندن

ترجمة: عبد المنعم صادق

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى تصدر عن مؤسسة دارالهلال

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

مدير التحرير
محمد رضوان

الإصدار الأول - يناير ١٩٤٩

العدد ٧٠٥ - سبتمبر (إيلول) ٢٠٠٧م - رمضان ١٤٢٨ هـ - توت ١٧٢٤ ق

الإدارة

القاهرة:
١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) .
المكاتبات:
ص.ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع.
تلكس:
Telex 92703 hilal u n
فاكس:
FAX: 23625469

البريد الإلكترونى :
darhilal @ idsc. gov. eg

قبل آدم

تأليف : جاك لندن

ترجمة : عبد المنعم صادق

دار الهلال



الخطوط للفنان :
محمد العيسوى

متابعة :
ياسر شعبان

الفصل الأول

صور! صور! صور!

وغالباً ما كنت أتساءل قبل أن أقف على الحقيقة من أين تأتى هذه الصور العديدة التى تزخر بها أحلامى، إذ كانت صورا لم أر مثيلا لها قط فى حياة اليقظة نهاراً. وقد عذبت هذه الصور طفولتى، وجعلت من أحلامى مركباً متلاحقاً من الكوابيس حتى اقتنعت بأنى اختلف عن بقية البشر وأنى مخلوق غيرطبيعى وملعون.

وما كنت أحقق أى قدر من السعادة إلا نهاراً أما فى الليل فقد كان الخوف مهيمناً ويا له من خوف. واستطيع أن أقول أنه لم يعان أى واحد من البشر يمشون معى على البسيطة خوفاً يشبه ذلك الخوف الذى كنت أعانيه، من حيث النوع أو الدرجة لأنه خوف من ذلك النوع الذى كان سائداً فى العصور الخالية، النوع الذى كان سارياً فى العالم البدائى وقت نشأته ثم وقت شبابه فى ذلك الوقت من التاريخ، الذى يعرف باسم العصر الجليدى الأخير، الذى نشأ فيه الإنسان الأول منذ مليون ونصف مليون سنة.

ماذا أعنى؟ أرى لزاماً علىّ أن أقدم بعض التفسير قبل أن أحكى لك مضمون أحلامى، وإلا لما عرفت إلا القليل من معنى الأشياء التى أجيد الإلمام بها. وإذ أكتب هذا تتواكب أمام ناظرى كل كائنات وأحداث العالم القديم، وكأنما أراها من خلال الفانوس السحرى وإذا أنا عرضتها عليك على النحو الذى تبدو عليه لى، لبدت لك غير معقولة ولا أصل لها.

والا فأى معنى تراه فى هذه التعبيرات؟ صداقة مسترخى الآذان أو إغراء

السريعة أو نشوة وارتداد العين الحمراء؟ لن تجد فى ذلك أى معنى، بل ستجد فيه تنافرا صارخاً تماماً كالذى تجده فى تعبيرات أعمال أهل النار وأهل الشجر ومجالس القبائل التى تسودها الهمهمة ، وذلك لأنك لاتعرف سلام الكهوف الرطبة فى الجرف، أو الازدحام عند موارد الماء فى آخر النهار. ولم تحس أبداً لفحة ريح الصباح فى قمم الجبال، ولم تتذوق حلاوة لماء الشجر النضر بفمك.

ورأى أنه من الأفضل لك أن تعالج الأمر كما عالجته أنا أثناء طفولتى، وأنا فى طفولتى أشبه الأطفال الآخرين كثيراً جداً، فى ساعات يقظتى نهاراً ولا أختلف عنه إلا أثناء النوم، ونومى منذ بواكير ماتعيه ذاكرتى فترة رعب بما يتضمنه من أحلام ، ومن النادر أن تصطبغ هذه الأحلام بصبغة سعادة إذ هى بصفة عامة مليئة بالخوف . وهو خوف يشبه الخوف الذى يسيطر على فى نومى. كان هذا الخوف فى صفته ونوعه يتجاوز كل خبرتى وتجاربى.

فأنا مثلاً غلام من أهل المدينة الذين يعتبرون الريف دنيا أخرى مجهولة ، ومع ذلك فلم تظهر المدن أبداً فى أحلامى، ولم يظهر أى بيت فى أحلامى، بل أنه لم ينفذ أى كائن بشرى من سور نومى .. ولقد كنت أطوف فى نومى بغابات لانهاية لها وأنا الذى لم أر الأشجار إلا فى الحدائق العامة وفى الكتب المصورة. وفضلاً عن ذلك لم تكن أشجار أحلامى مجرد بقع مبهمة بل كانت محددة واضحة . ولقد ألفت أغصانها ورأيت وعرفت كل ورقة من أوراقها وميزت كل ورقة عن بقية الأوراق.

وأذكر جيداً أول مرة رأيت فيها شجرة البلوط فى حياة يقظتى، وإذ أنا أنظر إلى الأوراق والفروع والعقد تذكرت بجلاء يدعو إلى الحزن، أنى رأيت نفس هذا النوع من الشجر مرات لا حصر لها أثناء نومى ، وبعد ذلك لم يثر دهشتى أن عرفت على الفور أشجاراً مثل شجر التنوب الفضى أو شجر السدر الجبلى أو شجر البتولا أو شجر الغار، حالما وقعت عينى عليه فقد سبق لى أن رأيتها كلها من قبل أثناء نومى.

ولعلك أدركت مدى مخالفة هذا لأول قانون من قوانين الأحلام وهو الذى يقول : «ان المرء لايرى فى أحلامه ما يراه فى حياة يقظته أو أخلاطاً من

أشياء رآها فى تلك الحياة». ولكن أحلامى خالفت هذا القانون، إذ لم أر فى أحلامى شيئاً قط عرفته فى حياة يقظتى. كانت حياة أحلامى وحياة يقظتى متباعدتين كلتاهما عن الأخرى ولا تشتركان فى شىء سواى.. كنت أنا حلقة الاتصال التى تحيا الحياتين كلتيهما على نحو ما.

ولقد علمت فى طفولتى أن البندق يأتى من البدال، وأن التوت يأتى من الفاكهانى، ولكن قبل علمى هذا قطفت فى أحلامى البندق من شجرة أو جمعت المتساقط منه تحتها وأكلته، وعلى نفس النحو أكلت التوت من شجرة، أو متساقطا تحتها. ولم تكن لى خبرة بذلك فى الحياة.

ولن أنسى أول مرة رأيت فيها التوت الأزرق يقدم على المائدة، إذ لم أكن قد رأيت من قبل توتا أزرق، ومع ذلك فحالما رأيته قفزت إلى ذهنى ذكريات أحلام طفت أثناءها بأرض موحلة وأكلت من ذلك التوت ملء بطنى. ولما وضعت أمى أمامى صحنا مليئاً بالتوت، وملأت ملعقتى به، لم أكد أرفع الملعقة إلى فمى حتى كنت على علم بمذاقه، ولم أشعر بخيبة أمل إذا كان له نفس المذاق الذى تذوقته آلاف المرات أثناء نومى.

الثعابين؟ قبل أن اسمع بوجود الثعابين بزمن طويل، كانت تعذبنى فى نومى وتتربص بى فى ممرات الغابة، وتقفز هاجمة على قدمى وتتلوى ماضية على خلال الأعشاب الجافة، أو فوق رقعة من الصخور العارية، أو تطاردنى حتى أعالى الشجر، وتحيط جذوع الأشجار بأجسامها اللامعة الضخمة وهى تدفعنى إلى أعلى فأعلى، أو أبعد فأبعد فوق فروع الأشجار المهتزة المتكسرة حتى أبلغ ارتفاعاً عن الأرض يسبب لى الدوار. الثعابين بألسنتها المتشعبة وأعينها اللامعة وقشورها البراقة وفحيحها – ألم أكن أعرفها جيداً يوم زرت السيرك لأول مرة ورأيت الحاوى وهو يجعلها ترفع رؤوسها عالية ؟ لقد كانت صديقاتى القديمات بل عدواتى التى ملأت ليالى بالخوف.

آه لتلك الغابات التى لانهاية لها ولكآبتها المفزعة الآن. ياطول ماجبتها خائفا مطارداً، أفزع لأدنى صوت أخاف من مجرد ظلى، وأنا متوتر الأعصاب دائم الانتباه واليقظة مستعد للاندفاع للتوقى، هرب جنونى، لأنجو بحياتى، ذلك لأنى

كنت فريسة كل أنواع الحياة المتوحشة التى تسكن الغابة. وكنت من فرط الخوف أجرى هرباً من الوحوش التى تطاردنى.

ولما بلغت الخامسة من عمرى ذهبت إلى السيرك لأول مرة، وعدت منه سقيماً ولم يكن مصدر السقم الفول السودانى أو الليمونادة الوردية اللون، ولكن حدث أننا عندما دخلنا خيمة الحيوانات مزق الهواء زئير أجش فجذبت يدى من يد أبى وعدت أدراجى مسرعاً، وخرجت من الباب واصطدمت بالناس وسقطت على الأرض وأنا أصيح طوال الوقت فى فزع وأمسكنى أبى وهدأنى. وأشار إلى جموع الناس إذ لم يعبأوا بالزئير وطيب نفسى بتأكيد السلامة.

وبالرغم من ذلك كله فإنى ظللت خائفاً أرتعد وأنا أقترب من قفص الأسد بتشجيع كبير من أبى . آه لقد عرفته على الفور. عرفت الوحش الرهيب! وانعكست فى رؤياى الباطنية ذكريات أحلامى – شمس الظهيرة مشرقة على الأعشاب الطويلة، وثور برى يرعى الكلأ فى هدوء، ثم انفراج الأعشاب فجأة يعقبه اندفاع ذلك الأسمر النحاسى اللون السريع وقفزته على ظهر الثور ثم الكسر فالخوار ثم القرقشة قرقشة العظم – أو هدوء رطب عند نبع ماء وجواد برى راكع على قائمتيه الأماميتين يشرب فى رقة ، وعندئذ الوحش الأسمر النحاسى اللون – دائماً الأسمر النحاسى اللون والقفزة وصهيل الجواد وانبطاحه على الأرض والقرقشة، قرقشة العظم، ومع ذلك مرة أخرى غسق معتم وصمت حزين فى آخر النهار، ثم الزئير القوى الممتلىء ينبعث فجأة وكأنه نفخ الصور فى يوم الدين، ويعقب ذلك على الفور ذلك الصياح المجنون واصطكاك الاسنان بين الأشجار. وأنا أرتعد خوفاً وأنا واحد من أولئك الصائحين العديدين الذين تصطك أسنانهم بين الشجر.

ولما رأيته بلا حول أو قوة بين قضبان قفصه غضبت وكشرت له عن أنيابى، وضغطت أسنانى ورقصت قافزا وأنا أصيح صيحات ساخرة غير مفهومة، وأشكل ملامح وجهى أشكالاً مضحكة، فاستجاب لى واندفع إلى الأمام ولكنه كان بين القضبان، فزأر مضمنا زئيره غضبه العاجز .. آه لقد عرفنى هو الآخر وكانت الأصوات الصادرة منى هى الأصوات القديمة التى يفهمها.

وخاف أبواى وقالت أمى «الولد مريض» وقال أبى «لقد أصيب بهستيريا» ولم

أقل لهما شيئاً ولم يعرفا شيئاً قط. والتزمت الصمت بشأن ازدواج شخصيتى وما يشبه الانفصام فيها لما أرى أنى على حق فى هذا الوصف.

ورأيت حاوى الثعابين وبعده لم أر شيئاً آخر فى تلك الليلة فى السيرك، بل أخذنى أبواى إلى البيت وأنا فى حالة عصبية منهك القوى سقيما بسبب غزو حياتى الأخرى وهى حياة أحلامى لحياتى الحقيقية.

ولقد ذكرت التزامى الصمت .. مرة واحدة فقط أفضيت بغرابة الأمر لشخص آخر هو غلام كان صاحبا لى وكنا فى الثامنة من عمرنا. ورسمت له من أحلامى صور ذلك العالم المنقرض الذى أعتقد انى عشت فيه يوماً ما، وأنبأته بأهوال ذلك الزمن الخالى ، زمن مسترخى الآذان ولهونا معاً ومجالس القبائل التى تسودها الهمهمة وأهل النار والأماكن التى كانوا يجلسون فيها القرفصاء وحكيت له المزيد وزاد ضحكه . وأقسمت له جادا أن الأمور كانت هكذا . وبدأ ينظر إلىّ نظرة ارتياب ويعطى لرفاقنا فى اللعب صورا مزيفة عجيبة لقصصى حتى أخذ الجميع ينظرون إلى فى ارتياب.

وكانت تجربة مريرة ولكنى تلقنت منها درسا وهو أنى مختلف عن بقية البشر وأنى شخص شاذ بى شىء لم يستطيعوا فهمه، وأن التحدث عنه لا يسفر إلا عن سوء فهم. وكنت استمع فى هدوء لما يحكى من قصص الأشباح والعفاريت وأبتسم لنفسى عابسا وأفكر فى ليالى الخوف التى عشتها وأنا أعرف أن الأشياء التى أراها حقيقية .. حقيقية مثلى وليست أبخرة مخففة وظلالا متوهجة.

ولم تكن فكرة الغيلان والعفاريت تخيفنى، أما الرعب المجسم فهو السقوط خلال الاغصان المورقة والارتفاعات المثيرة للدوار، والثعابين التى تهاجمنى وأنا أروغ منها وأقفز بعيداً هربا منها، وأسنانى تصطك والكلاب المتوحشة التى تطاردنى عبر الأرض الفضاء المكشوفة نحو الغابة. لأنها كانت أحداثا واقعية ولم تكن تخيلا . كانت أشياء اللحم الحى والعرق والدم .. أما الغيلان والعفاريت وأنا فقد كنا رفاق فراش إذ هى قورنت بهذه الأهوال التى شاركتنى فراشى طول طفولتى ولا تزال تشاركنى الفراش الآن وأنا أكتب هذا وقد قطعت من عمرى أعواماً عديدة.

الفصل الثانى

قلت من قبل انى لم أر فى أحلامى كائناً بشرياً قط. وقد أدركت هذه الحقيقة مبكراً جداً وأحسست نقص النوع الذى انتمى اليه إحساساً مؤلماً. وكنت أحس وأنا طفل صغير أنى لو استطعت أن أجد رجلاً واحداً فحسب أو إنساناً واحداً فحسب لأنقذنى ذلك من أحلامى فلا تعد . وظلت فكرة تمنى وجود ذلك الإنسان الواحد مسيطرة علىّ كل ليلة من ليالى حياتى مدة سنوات.

ويجب أن أكرر أن هذه الفكرة كانت تراودنى أثناء أحلامى فأعتبرها برهاناً على اندماج شخصيتى، وبرهان وجود نقطة اتصال بين الجزءين المنفصلين اللذين تتكون منهما شخصيتى، شخصية الأحلام التى عاشت فى الماضى السحيق قبل وجود الإنسان بصورته المعروفة لنا، وشخصيتى الأخرى وهى شخصية اليقظة النهارية التى كانت تفرض نفسها إلى مدى معرفة وجود الإنسان فى مادة أحلامى.

وربما وجد علماء النفس عيباً فى طريقة استخدامى تعبير «تفكك الشخصية» وأنا أعرف الاصطلاح الذى يستخدمونه ومع ذلك فأنا مضطر إلى استخدامه على طريقتى بسبب قصورى عن إيجاد تعبير أفضل. والآن سأمضى إلى تفسير استخدامى هذا التعبير أو سوء استخدامى له.

وإلى أن أصبحت شاباً طالباً فى الكلية لم أجد أى دليل إلى مغزى أحلامى وسببها، وظلت حتى ذلك التاريخ بلا معنى وبلا علة ظاهرة، ولكنى اكتشفت فى الكلية التطور وعلم النفس وتعلمت تفسير الحالات والتجارب العقلية الغريبة العديدة، فمثلاً كان هناك حلم السقوط فى الفضاء وهو أعم تجارب الأحلام التى يعرفها جميع الناس بالتجربة.

وقال أستاذى لى ان هذه ذكرى عنصرية ترجع إلى أسلافنا الأوائل الذين عاشوا على الشجرة. ولما كانوا من سكان الشجر فان احتمال سقوطهم كان خطراً قائماً دائماً، وقد فقد الكثيرون منهم حياتهم على هكذا النحو. وحدث لهم جميعاً أن سقطوا سقطات رهيبة وكانوا ينقذون أنفسهم بامساك فروع الشجر وهم يهوون إلى الأرض.

وتسفر السقطة الرهيبة عن صدمة تسفر بدورها عن تغييرات جزئية فى الخلايا المخية الذرية وبهذا أصبحت باختصار ذكريات عنصرية. وهكذا عندما ننام أنا وأنت أو نغفو حتى يخيم علينا النعاس فاننا نسقط فى الفضاء ونستيقظ على الاحساس بالانقباض ونحن على وشك الاصطدام. عندما يحدث هذا لنا فلسنا نتذكر الا ما كان يحدث لأسلافنا أهل الشجر، وقد دمغته التغييرات المخية وتوارثها الجنس.

وليس فى هذا شىء غريب أكثر مما فى الغريزة من غرابة، والغريزة مجرد عادة أدمجت فى كياننا الوراثى. ويلاحظ بهذه المناسبة أننا فى حلم السقوط المألوف جداً لك ولى ولنا جميعاً لا نصل إلى الاصطدام بالأرض، لأن هذا الاصطدام يحطم ، وأولئك الذين اصطدموا بالأرض من أسلافنا أهل الشجر ماتوا على الفور. صحيح أن الصدمة التى نجمت عن سقوطهم وصلت إلى الخلايا المخية، ولكنهم ماتوا فوراً قبل أن ينجبوا ذرية . وأنت وأنا من سلالة أولئك الذين لم يصطدموا بالأرض وهذا هو السبب فى أننا لا نصطدم بالأرض أبداً فى أحلامنا.

ونأتى الآن إلى تفكك الشخصية. اننا لانحس أبداً إحساس السقوط ، حين نكون مستيقظين تماماً ، ولا خبرة لشخصيتنا فى اليقظة النهارية بالسقوط. ولا جدال اذن فى الحجة التى تقول ان شخصية أخرى متميزة تلك التى تسقط أثناء نومنا، وهى التى لها خبرة بمثل هذا السقوط وهى باختصار التى تذكر تجارب النوع فى الماضى تماماً كما تذكر شخصيتنا الأخرى تجاربنا فى حياة اليقظة النهارية.

وفى هذه المرحلة من تفكيرى بدأت أرى ضوء الحقيقة وتفجر الضوء بسرعة

يأخذ بريقه بالأبصار، وهو يضىء ويفسر كل ماكان غريباً ووراء الطبيعة، ومستحيلاً فى تجاربى فى الأحلام وفى نومى لم تكن شخصية يقظتى هى التى تسيطر على بل كانت المسيطرة على شخصية أخرى متميزة ذات رصيد جديد مختلف تماماً من التجارب ولها ذكريات تلك التجارب المختلفة .

ما هى هذه الشخصية؟ ومتى عاشت هى نفسها حياة اليقظة فى هذا الكوكب حتى جمعت هذا الرصيد من التجارب الغريبة؟

كانت هذه أسئلة أجابت عليها أحلامى نفسها. عاش الشخص الآخر فى الزمان الخالى عندما كان العالم فتيا فى تلك الفترة التى نسميها منتصف العصر الجليدى الأخير. وسقط من فوق الشجر ولكنه لم يصطدم بالأرض. وكان يتمتم خوفاً عند سماعه زئير الأسد وكانت الوحوش الكاسرة تطارده والثعابين الفتاكة تهاجمه وكان يثرثر مع أفراد نوعه فى المجلس وناله أذى أهل النار يوم أن هرب منهم.

ولكنى أسمعك تعترض .. لماذا لم تكن هذه الذكريات المتعلقة بالنوع لنا أيضاً بالمثل ونحن الذين لنا تلك الشخصية الأخرى الغامضة التى تسقط فى الفضاء ونحن نيام؟

وأستطيع أن أجيب بسؤال آخر .. لماذا يوجد عجل له رأسان؟ وجوابى على هذا السؤال هو أن ذلك فلتة من فلتات الطبيعة وهذا هو نفس جوابى على سؤالك. إن لى هذه الشخصية الأخرى ولى تلك الذكريات الكاملة المتعلقة بالنوع لأنى فلتة من فلتات الطبيعة.

ولكن لأكن أكثر وضوحاً فأكثر ذكرياتى المتعلقة بالنوع شيوعاً هى حلم السقوط فى الفضاء. وهذه الشخصية الأخرى غامضة جداً، فكل ما فيها من ذكرى هو ذكرى السقوط ولكن للكثيرين منا شخصيات أخرى أكثر وضوحاً وتميزاً فالكثيرون منا يحلمون بالطيران وبمطاردة – الغول وبالألوان وبالاختناق وبالزواحف والهوام. وباختصار بينما توجد هذه الشخصية الأخرى أثرا فينا جميعاً، فانها تكاد تنمحى تماماً فى بعضنا، وهى أكثر بروزا فى بعضنا الآخر ولبعضنا ذكريات تتعلق بالنوع أقوى وأكمل مما عند البعض الآخر.

والمسألة كلها مسألة اختلاف درجة سيطرة الشخصية الأخرى، ودرجة سيطرة الشخصية الأخرى على هائلة. وتكاد شخصيتى الأخرى تساوى شخصيتى الأولى فى القوة. وأنا فى هذا الأمر كما قلت فلتة من فلتات الطبيعة وفلتة فى الوراثة.

وأعتقد فعلاً أن سيطرة هذه الشخصية الأخرى – ولكنها ليست فى قوة شخصيتى – هى التى أوجدت عند القلة من الآخرين الاعتقاد بتجربة البعث وهى نظرية مقبولة جداً ومقنعة أشد الاقناع عند هؤلاء الناس بالذات . وعندما يرون رؤى لمناظر لم يروها بأنفسهم من قبل قط كذكرى أعمال وأحداث يرجع تاريخها إلى الماضى فان أبسط تفسير لذلك هو أنهم سبق لهم أن عاشوا من قبل.

ولكنهم أخطئوا إذا تجاهلوا ازدواج شخصيتهم وهم لايعرفون شخصيتهم الأخرى ويظنونها شخصيتهم نفسها وان لهم شخصية واحدة فحسب ومن مثل هذا الفرض لايستطيعون ان يستنتجوا غير شىء واحد هو أنهم عاشوا حياة سابقة .

وهم مخطئون فليس الأمر بعثاً وأنا أرى نفسى أجوب الغابات التى كانت موجودة والعالم فى شبابه، ومع ذلك فليس الذى أراه هو أنا بل لايزيد عن أن يكون جزءا منى، ولكنهما أقل بعداً. ونفسى الأخرى هى سلفى. سلف أسلافى فى الخط الأول من نوعى وهو نفسه سليل خيط ظهرت عليه من قبل عصره بزمن طويل أصابع فى اليدين والقدمين وتسلق الشجر.

ويجب أن أذكر مرة أخرى – وأنا أخاطر باثارة الملل أنى فى هذا الشىء أعتبر فلتة لا لأن لى ذكرى متعلقة بالنوع إلى مدى هائل ولكن لأن لى ذكريات سلف معين قديم جداً ، ومع ذلك فانه بينما يكون هذا أمراً عاديا فانه ليس فيه ما يثير العجب.

تتبعنى فى منطقى .. الغريزة ذكرى تتعلق بالنوع . هذا حسن جداً واذن فانت وأنا وجميعنا نتلقى هذه الذكريات من أبائنا وأمهاتنا كما تلقوها بدورهم من أبائهم وأمهاتهم، واذن فلابد من أن هناك وسيطاً تنتقل به هذه الذكريات من جيل إلى جيل. هذا الوسيط هو ما وصفه وايزمان بأنه «البلازما الجرثومية» وهى تحمل ذكريات كل تطور الجنس . وهذه الذكريات معتمه ومضطربة وأكثرها ضائع ولكن

بعض سلالات البلازما الجرثومية تحمل شحنة كبيرة من الذكريات، ولكى يكون تعبيرنا علمياً نقول ان هذا البعض أكثر ارتداداً إلى الأصل من السلالات الأخرى وسلالتى من هذا النوع. وأنا فلتة من فلتات الطبيعة فى الوراثة أو كابوس مرتد للأصل . سمنى ما شئت من أسماء ولكنى هائنذا حقيقى وحىّ. آكل ثلاث وجبات طعام طيبة يومياً فماذا أنت صانع إزاء ذلك.؟

★★★

والآن قبل أن أبدأ قصتى أريد أن اتوقع المتشككين من أمثال توماس من علماء النفس والذين يميلون إلى السخرية والقول بأن ملازمة أحلامى ترجع إلى الإمعان فى الدراسة والاسقاط الباطنى لمعرفتى للتطور فى أحلامى. وفى المكان الأول لم أكن أبداً طالباً متحمساً. فكان ترتيبى عند التخرج الأخير فى فصلى المدرسى، وكانت عنايتى بالألعاب الرياضية تفوق عنايتى بالدراسة – وليس هناك سبب يدعونى لئلا اعترف بهذا وكان البلياردو أهم ما أعنى به فى الألعاب الرياضية .

وفضلاً عن ذلك فلم تكن لى أية معرفة بالتطور حتى التحقت بالكلية بينما كنت فى طفولتى وشبابى أعيش فعلاً فى أحلامى بكل تفاصيل تلك الحياة الأخرى حياة العصور الأولى . ومع ذلك فسأقول ان هذه التفاصيل كانت مختلفة ومتنافرة حتى عرفت علم التطور. فكان التطور هو مفتاح السر وأعطانى التفسير وأعاد إلى عقلى المرتد إلى الأصل صحته . عقلى الحديث الطبيعى الذى يرجع إلى ماض سحيق حتى يكون معاصراً للبداية الخام للبشرية.

لأنه فى هذا الماضى الذى أعرفه لم يكن للإنسان كما نعرفه الآن وجود ولابد أن أكون قد عشت وكان وجودى فى الفترة التى كان الإنسان فيها فى طريقه إلى الوجود.

الفصل الثالث

وأكثر الأحلام شيوعاً فى طفولتى شىء كهذا . كنت أبدو صغيراً جداً متكورا، وأنا راقد داخل مايشبه أن يكون عشا مكوناً من الأغصان وفروع الشجر. وأحياناً أبدو راقداً على ظهرى، وأقضى هكذا عدة ساعات، أرقب أشعة الشمس، وهى تنعكس على أوراق الشجر فوقى، والرياح تحرك هذه الأوراق، وغالباً ما يتحرك العش نفسه، عندما تكون الريح قوية.

ولكنى كنت دائماً، وأنا راقد هكذا فى العش، يسيطر علىّ شعور بفضاء هائل تحتى لم أراه قط، ذلك لأنى لم أتطلع فوق حافة العش فأراه، ولكنى كنت أعرف وأخشى ذلك الفضاء تحتى تماماً يتهددنى دائماً ، وكأنه جوف حيوان مفترس هائل.

وكثيراً ما رأيت فى بواكر طفولتى حلماً أنى هامد. ثم يحدث فجأة أن تندفع إلى داخل هذا الحلم أشكال غريبة وأحداث وحشية ورعد وقصف عاصفة أو مناظر طبيعية غير مألوفة لا عهد لى بمثلها فى حياة اليقظة، فيكون اضطراب وكابوس ولا أستطيع فهم شىء من ذلك إذ ليس هناك أى تسلسل منطقى لكل ذلك.

وإنك لترى أن أحلامى خالية من التسلسل فأنا فى لحظة ماطفل صغير جداً من أطفال العالم القديم، راقد فى عش شجرة. وفى اللحظة التالية أرانى رجلاً كامل الرجولة مشتبكاً فى معركة مع العين الحمراء وفى اللحظة التى تلى تلك أرانى أزحف بحذر نحو نبع الماء، والنهار حار شديد الحرارة، وبينما الأحداث فى العالم القديم تفصل بينها سنوات كاملة إذا بها تحدث لى فى الحلم ولا يفصل بينها غير دقائق أو ثوان.

فالأمر كله مضطرب أشد الاضطراب ولكنى لن أنقل هذا الاضطراب اليك. ولقد ظللت على هذا النحو حتى الشباب وحلمت عدة آلاف المرات حتى إذا بلغت طوق الشباب استقامت الأمور ووضحت . إذ وقفت على سر الزمن ، وأصبحت قادراً على تجميع الأحداث ، والأعمال ، وفقا لنظامها الصحيح ، فاستطعت أن أعيد تكوين صورة العالم كما كان وقت نشاته وهو الوقت الذى كنت أعيش فيه – أو الوقت الذى كانت ذاتى الأخرى تعيش فيه .. ولا أهمية للتمييز بين الشيئين لأنى كرجل حديث عدت إلى الوراء وعشت الحياة الأولى ضحية ذاتى الأخرى.

***

ولكى يكون الأمر ملائماً لك سأنظم الأحداث المختلفة جميعها فى قصة شاملة لأن هذا الكتاب ليس بحثاً مطولاً فى علم الاجتماع بل هناك خيط معين من الاستمرار والحدوث يسلك كل الأحلام . وهناك مثلا صداقتى لمسترخى الأذن وعداوة صاحب العين الحمراء .

وأنا واثق من أنك توافق على جمع كل هذا فى قصة مترابطة ومسلية.

وذكرياتى عن أمس قليلة وربما أقدم ذكرى لها وأكثرها وضوحاً هى أنى كنت راقداً على الأرض ، وقد أصبحت أكبر سنا منى أيام أن كنت فى العش ، ولكنى لم أزل عاجزا وأخذت أتدحرج هنا وهناك فى الأوراق الجافة ألعب وأدندن بصوت كصوت أحتكاك الخشب وأشعة الشمس دافئة . وأذكر أنى كنت سعيداً شاعرا بالراحة وأنا فى مكانى الصغير المكشوف وقد أحاطت بى من كل ناحية شجيرات ونباتات تشبه السرخس وفوق وفى كل مكان جذوع وفروع أشجار الغابة .

وعلى حين فجأة سمعت صوتاً فاعتدلت فى جلستى ولم أتحرك وتوقفت الضوضاء الصغيرة فى حلقى وجلست وكأنما قد تحولت إلى صخر واقترب الصوت وكان كقباع الخنزير . وعندئذ سمعت الأصوات الصادرة عن تحرك جسم فى الغابة . ورأيت بعد ذلك نباتات السرخس وقد حركها مرور الجسم وانشقت نباتات السرخس عن عينين براقتين وخرطوم طويل وأنياب بيضاء.

كان خنزيرا بريا . ونظرا لى فى فضول وقبع مرة أو مرتين ثم نقل ثقله من إحدى قائمتيه الأمامتين إلى الأخرى وهو يحرك رأسه فى نفس الوقت من جانب إلى آخر ، ويهز نباتات السرخس وظللت جالسا فى مكانى ساكنا كشخص متحجر بينما ظلت عيناه لا تطرفان وأنا أحدق النظر فيه والخوف ينهش قلبى.

وبدا لى أن صمتى وجمود حركتى هو كل ما ينتظر حدوثه منى وأنه لم يكن واجبا على أن أصرخ فى وجه الخوف . كان ذلك هو إملاء الغريزة وهكذا جلست وانتظرت دون أن أعرف ما هذا الذى أنتظره . ورفع الخنزير البرى السرخس جانبا وخرج إلى العراء وقد ذهب الفضول من ناظريه ولمعت عيناه ببريق القسوة ورفع رأسه نحوى مهددا وتقدم خطوة وفعل نفس الأمر مرة أخرى ثم مرة ثالثة.

وعندئذ صحت ، أو صرخت صرخة لا أستطيع وصفها ، ولكنها كانت صرخة حادة ورهيبة ويبدو أن ذلك فى هذه المرحلة من سير الأحداث هو ما كان ينتظر منى أن أفعله . فمن مكان غير بعيد جاءت صيحة الاستجابة ، ويبدو أن الصوت الذى صدر عنى سبب للخنزير ارتباكا مؤقتا إذ توقف ونقل ثقله فى تردد وفى تلك اللحظة أندفع شبح نحونا .

كانت أمى تشبه ، أن تكون قردة ضخمة من نوع الأورانج – أوتان أو الشمبانزى – ومع ذلك فقد كانت مختلفة عن هاتين المخلوقتين على نحو واضح محدد . كانت أثقل بناء منهما وأقل شعرا . ولم تكن ذراعاها فى طول أذرعهما أما ساقاها فأغلظ من سيقانهما وكانت عارية من الثياب لا يغطيها سوى شعرها الطبيعى الطويل . وعندما ثارت كانت صورة كاملة للغضب.

واندفعت غاضبة إلى مكان الحدث وهى تضغط أسنانها فيكون لذلك صرير وتقطب جبينها على نحو مخيف وتكشر عن أسنانها وتصدر صيحات حادة مستمرة وكأنها ترديد لمقطعين «خا – آه ١» و «خا– آه ، ١» وجاء ظهورها مفاجئا ومخيفا إلى حد أن الخنزير كور نفسه قهرا متخذا وضعا دفاعيا ونفش شعره وهى تميل نحوه . وقد أفزعته حتى بهرت أنفاسه.

وعرفت أنا ماذا يجب على أن أفعل فى اللحظة التى انتصرت أمى فيها فقفزت نحوها وأحطت وسطها وتعلقت به بيدى وقدمى. نعم بقدمى إذ كان فى استطاعتى استخدامها كاستخدامى ليدى .. وأحسست تحت قبضتى المتوترة انتفاش شعرها بينما كان جلدها وعضلاتها تتحرك تحته مع الجهود التى تبذلها.

وعلى أثر قفزتى نحو أمى وإحاطتى وسطها بيدى وقدمى قفزت هى فى الهواء وأمسكت فرع شجرة كان متدليا فوقنا. وفى اللحظة التالية مر الخنزير تحتنا مندفعا ولأنيابه صليل إذ كان قد أفاق من دهشته إلى الأمام وهو يصرخ وكان

صراخه كنفخ البوق . وعلى أية حال كان ذلك نداء أعقبه اندفاع أجسام بين نباتات السرخس وغبار يثور من كل ناحية.

ومن كل جانب اندفعت الخنازير البرية إلى الأرض العراء . وكانت عشرة خنازير ولكن أمى تحركت وانتقلت إلى غصن شجرة سميك على ارتفاع عشرة أقدام من الأرض . وظللت متعلقا بها . وجلسنا القرفصاء آمنين ولكنها ظلت فى حالة انفعال شديد وثرثرة وهى تصيح وتعنف تلك المجموعة من الخنازير البرية التى تجمعت تحتنا وهى نافشة شعرها مكشرة عن أنيابها . ونظرت بدورى وأنا أرتعد إلى الوحوش الغاضبة . وبذلت قصارى جهدى فى تقليد صيحات أمى.

ومن بعيد جاءت صيحات مماثلة إلا أنها أشد عمقا حتى لتصل فى قوتها إلى نوع من الزئير المنخفض . وزادت هذه الصيحات ارتفاعا . وسرعان ما رأيته يقترب .. كان أبى أو على الأقل استنتجت أنه أبى على ضوء ما رأيت من براهين ذلك الوقت.

لم يكن أبا يثير الاعجاب كشأن غيره من الآباء عادة . كان نصف انسان ونصف قرد . ومع ذلك فلم يكن قردا ولم يكن إنسانا. لا أستطيع وصفه على وجه التحديد فليس كمثله شئ على سطح الأرض أو تحت الأرض أو داخل الأرض . إلا أنه كان رجلا عظيما فى عصره ولابد أنه كان يزن مائة وثلاثين رطلا ، ووجهه عريض مفرطح ، ويغطى حاجباه عينيه الصغيرتين الغائرتين المتقاربتين . ولم يكن له أنف على الأطلاق إذ كان أفطس عريضا لا قصبة له ينتهى بثقبين فى الوجه مفتوحين إلى فوق.

أما جبينه فمنحدر إلى الوراء ابتداء من العينين ويبدأ شعر رأس من فوق العينين مباشرة حتى يغطى الرأس الصغير بدرجة غير معقولة ويستند إلى عنق قصير سميك بدرجة هى الأخرى غير معقولة.

وأما الصدر فعميق عمق الكهف وليست به عضلات كاملة الانتفاخ ولم يكن فى جسده استقامة واضحة أو اتساق كريم. وكان جسد أبى يمثل القوة .. القوة بالإجمال . القوة المتوحشة البدائية التى صنعت لتقبض وتمسك وتمزق وتحطم.

وفخذاه نحيفتان وساقاه هزيلتان يغطيهما الشعر وبهما اعوجاج وعضلاتهما مشدودة . وساقا أبى فى الواقع تشبهان الذراعين وهما مفتولتان ومعقدتان

وليست لهما بطن الساق الممتلئة التى تزين ساقك وساقى. وأذكر أنه لم يكن مستطيعا المشى على بطن القدم والسبب فى هذا هو أن هذه القدم قابضة أقرب إلى اليد منها إلى القدم وبدلا من أن يكون أبهام قدمه فى صف واحد مع بقية أصابع القدم كان يعارض هذه الأصابع معارضة أبهام اليد مما كان يمكنه من أن يقبض بقدمه..

ولكن مظهره لم يكن أكثر غرابه من طريقته فى مجيئه إلينا حيث كنا أنا وأمى جاثمين فوق الخنازير البرية الغاضبة. جاء عبر الأشجار يقفز من غصن إلى آخر ومن شجرة إلى أخرى. وجاء مسرعا وأستطيع أن أراه الآن بعين اليقظة وأنا أكتب هذا وهو يتأرجح خلال الأشجار طول طريقه إلينا مخلوقا ذا أربع أيد يغطيه الشعر وهو يصيح غاضبا ويتوقف من وقت لآخر ليضرب صدره بقبضتى يديه ثم يقفز مسافة عشرة أقدام أو خمسة عشر قدما فى كل مرة ويمسك فرع شجرة بيد ويتأرجح إلى فرع شجرة آخر يمسكه بيده الأخرى ، ويمضى دون أن تردد ولا يضل طريقه أبداً بين الأشجار.

وكنت وأنا أرقبه أحس داخل كيانى وفى عضلاتى الحافز وهذه الرغبة فى أن أمضى قافزا من غصن إلى آخر وأحس أيضاً ضمان القوة الكامنة فى ذلك الكائن وفى عضلاتى . ولم لا ؟ أن الأولاد الصغار يرقبون أباهم وهم يطوحون البلطة ويسقطون الاشجار ويحسون فى أنفسهم أنهم سيطرحون البلطة ، ويسقطون الأشجار يوما ما . وهكذا الأمر معى . كان تكوينى يقضى بأن أقفل ما كان أبى يفعله ، ويهمس لى سرا مشيرا طموحى بالطرق الهوائية والطيران فى الغابة.

وأخيراً لحق أبى بنا. وكان غاضبا أشد الغضب ، وأذكر كيف برزت شفته السفلى ، وهو يطل غاضبا على الخنازير البرية ، ويعوى كالكلب ، وأذكر أنيابه الكبيرة كأنياب الحيوان ، وقد تأثرت بها تأثرا كبيرا.

ولم يسفر سلوكه هذا إلا عن زيادة هياج الخنازير . وكسر بعض أطراف الاغصان والفروع الصغيرة ، وألقى بها على أعدائنا بل أنه تدلى بإحدى يديه يكيدها ويعذبها بالأمل الكاذب بينما هو بعيد عن أن تصل إليه . وسخر منها ، وهى تصر على أسنانها فى غضب العاجز ، ولم يكتف بهذا ، بل كسر فرع

شجرة، وكان الفرع سميكا وتعلق بيد وقدم ولكن الوحوش فى جنوبها ، ولطمها بعنف على أنوفها ، ولا حاجة بى إلى أن أقول أننا استمتعنا بهذه اللعبة أنا وأمى. ولكن المرء يمل كل الأشياء الطيبة . وفى آخر الأمر مضينا فى طريقنا عبر الأشجار ، وأبى يقهقه بخبث وهو يتقدمنا . والآن انحسرت أطماعى وأصبحت خائفا – أتمسك بأمى بامعان ، وهى تتسلق فروع الأشجار وتتأرجح فى الفضاء. وأذكر أن فرع شجرة انكسر تحت وطأة ثقلها ، لأنها كانت قد قفزت قفزه واسعة وإذ أنكسر فرع الشجرة غلبنى شعور ممض بسقوطنا أنا وأمى فى الفضاء وذهبت من عينى رؤيا الغابة وأشعة الشمس المنعكسة على أوراق الشجر ولمحت أبى لمحة ذابلة وهو يقف فى تقدمه فجأة لينظر وبعدئذ لم أر سوى الظلام.

وفى اللحظة التالية استيقظت فى فراشى المغطى بالملاءة والعرق يتصبب من جسدى وأنا أرتعد وقد أصابنى الدوار . وكانت النافذة مفتوحة والهواء البارد يهب على داخل الغرفة ومصباح الليل يضئ بهدوء . ولهذا السبب أرى أن الخنازير البرية لم تلحق بنا وأننا لم نسقط على الأرض وإلا لما كنت هنا الآن بعد ألف قرن من الزمان أذكر ما حدث.

والآن ضع نفسك فى مكانى لحظة . سر معى قليلاً فى طفولتى الرقيقة وشاركنى فراشى ليلا وتصور نفسك تحلم مثل هذه الأحلام غير المفهومة أحلام الرعب . تذكر أنى كنت طفلا بلا تجربة وأنى لم أر فى حياتى من قبل خنزيرا بريا أبداً بل أنى لم أر حتى الخنزير المستأنس وأقرب نقطة إلى المستأنس وصلت إليها هى لحم خنزير يطش فى دهنه لطعام أفطارى ومع ذلك فهنا خنازير برية حقيقية كالحياة نفسها تندفع فى أحلامى. وأنا وأبواى الخياليان نتأرجح بين الأشجار السامقة.

فهل تعجب لأنى كنت خائفا ، وتضايقنى الليالى الحافلة بالكابوس . لقدكنت مغضوبا على . وأسوأ من ذلك أنى كنت أخاف الكشف عنها ، ولا أعرف لذلك علة إلا أنى كنت أشعر بالذنب وأن لم أعرف ما هو ذنبى على التحديد . وهكذا قضيت أعواما طويلة وأنا أعانى فى صمت ، حتى بلغت مبلغ الرجال ، وعرفت السبب فى أحلامى ومصدرها.

الفصل الرابع

وفى ذكرياتى عن عهد ما قبل التاريخ شئ محير هو غموض عنصر الزمن . إذ لا أعرف أبدا أسبقية الاحداث . ولا أستطيع أن أعرف ما إذا كان قد انقضى بين حادث وآخر سنة أو سنتان أو أربع أو خمس سنوات . وكل ما أستطيع أن أعرفه عن مرور الزمن إنما على وجه التقريب ، وذلك على ضوء التغييرات التى تحدث فى مظهر وسلوك رفاقى.

وأستطيع أيضاً أن أطبق منطق الأحداث على الوقائع المختلفة . فمثلا لا شك على الاطلاق فى أن الخنازير البرية قد ألجأتنى أنا وأمى إلى الأشجار وجعلتنا نهرب ونسقط وأن هذا قد حدث قبل تعرفى على مسترخى الأذن رفيق صباى . ومن المقطوع بصحته أيضاً أنى تركت أمى فى وقت يقع بين هاتين الفترتين .

ولا أذكر عن أبى شيئاً غير ما ذكرته . إذ لم يعد للظهور أبداً فيما تلا ذلك من سنوات . وعلى ضوء معرفتى بتلك الازمنة أجد التفسير الوحيد الممكن لذلك فى أنه لابد أن يكون قد هك بعد المغامرة التى وقعت مع الخنازير البرية بوقت قصير. ولا جدال فى أن نهايته جاءت مبكرة قبل الأوان إذ كان كامل القوة ، موفور الصحة ، ولا يمكن أن يموت إلا ميتة مفاجئة وعنيفة ولكن لا أعرف كيف مات .. هل غرق فى النهر ، أم ابتلعه ثعبان ، أم دخل بطن النمر ذى الأنياب الشبيهة بالسيوف ؟ كل هذا لا علم لى به .

وكل ما أعرفه هو أنى لا أذكر غير الأشياء التى رأتها عيناى فى تلك الأيام السابقة للتاريخ . ولم تقل أمى لى أبدا ما إذا كانت قد علمت نبأ وفاة أبى . وأشك فيما إذا كانت لديها حصيلة من المفردات تكفى لنقل هذه المعلومات . وربما كانت للقبيلة فى تلك الأيام مفردات ذات ثلاثين أو أربعين صوتا.

وأسميها أصواتا لا كلمات لأنها كانت أصواتا أولا . ولم تكن لها قيم محدده يمكن أن تتغير بالصفات والظروف لأن أدوات الكلام التى نستخدمها الآن لم تكن قد اخترعت بعد . ولم نكن نصف الأسماء أو الأفعال باستخدام الصفات والظروف. بل كنا نصف الأصوات بتغيير درجة الصوت أو كميته أو عمقه أو بالابطاء والإسراع وكان طول الوقت الذى يستغرقه نطق الصوت بلون معناه.

ولم يكن لدينا تصريف أفعال ، وأنما يحكم المرء على زمن وقوع الفعل بالمضمون وما كنا نتكلم إلا الأشياء الثابتة لأننا لم نفكر إلا فى الأشياء الثابتة ، وأغلب اعتمادنا على الاشارة الثابتة إذ أن أبسط الاشياء المجردة تفوق قدرتنا على التفكير وإذا حدث أن فكر المرء فى أحد هذه الأشياء المجردة تعذر عليه أن يوصله إلى رفاقه ، وأجهد نفسه عبثا فى محاولة تجاوز حصيلته من المفردات . فان هو ابتكر أصواتا لها ، ما استطاع رفاقه فهم هذه الأصوات ، فيعود الى الاشارات الصامتة يصور بها الفكرة. ماأمكنه ذلك ، ويأخذ فى ترديد الصوت الجديد المرة تلو المرة.

وهكذا نمت لغتنا ، واستطعنا بالأصوات القليلة التى لدينا أن نفكر فيما هو وراء هذه الأصوات بمسافات قليلة . وهنا ظهرت الحاجة إلى أصوات جديدة للتعبير بها عن الأفكار الجديدة وعلى كل حال ، فقد كنا أحيانا نفكر فيما يسبق أصواتنا بمسافات طويلة ، واستطعنا تحقيق المعانى المجردة (واعترف بانها قليلة)، ولكننا فشلنا تماما فى جعل غيرنا يدركها . ومهما كان من أمر فإن نمو اللغة فى تلك الأيام لم يكن سريعاً.

صدقنى . لقد كنا بسطاء بصورة تثير العجب . ولكننا عرفنا أشياء لم تعد الآن معروفة . فمثلاً استطعنا تحريك آذاننا إلى أعلا أو إلى أسفل بارادتنا ، كما استطعنا حك ما بين الكتفين بسهولة وإلقاء الحجارة بأقدامنا وقد فعلت أنا ذلك عدة مرات . وكنت مستطيعا أن أبقى ركبتى مستقيمتين ، وأنا أنحنى إلى الأمام حتى ألمس الأرض بمرفقى لا بأطراف أصابعى فحسب . أما من ناحية الاعشاش التى كنا نسكنها فإنى لا أتمنى أكثر من أن يستطيع غلام القرن العشرين رؤيتنا. ولكننا لم نكن نجمع البيض فى تلك الأعشاش بل كنا نكتفى بأكله .

وأذكر - وإن كنت بهذا الذكر أسبق قصتى - دعنى أذكر لك قصة مسترخى الأذن - وصداقتى معه. ففى بواكير صباى انفصلت عن أمى. وربما كان سبب هذا الانفصال أنها اتخذت لها زوجا آخر بعد وفاة أبى، وأنى لأحمل لهذا الزوج ذكريات ولكنها ذكريات لا تسر كان نزقاً خاليا من الصلابة ذرب اللسان لا يكف عن ثرثرته الجهنمية التى لا تزال تزعجنى كلما فكرت فيها . أما تفكيره ، فليس فيه التسلسل الذى يسمح له بأن يحدد له غرضا . وأن القردة فى أقفاصها لتذكرنى به دائما فهو أقرب إلى القردة منه إلى الانسان ، وهذا هو خير ما أصفه به.

ولقد كرهنى منذ البداية ، وعلمنى أن أخافه وأن أخاف مرحه الخبيث ، حتى إذا لمحته عيناى زحفت أدنو من أمى وأتعلق بها. واستمر نموى ، ولم يعد هناك مفر من أن أبتعد عنه من حين لآخر ، وأن تتسع فترات ابتعادى عنه أكثر فأكثر ، ولكم كان «الثرثار» يترقب هذه الفترات (وأستطيع هنا أن أوضح أيضاً أنه لم تكن لنا اسماء فى تلك الأيام ، ولكن أخفف عليك العبء اضفيت من عندى اسماء على جميع الذين وثقت صلتى بهم واسم الثرثار واصدق وصف استطعت الوصول إليه ليطابق زوج أمى العزيز أما أنا فأنا الضب (لأن اسنانى الامامية كبيرة جدا).

ولنعد الآن إلى الثرثار ، وكثيراً ما أثار رعبى وقرصنى ولطمنى ، بل وأحيانا كان يعضنى ، وغالبا ما تدخلت أمى وأمتعتنى باثارتها غضبه ، حتى يغلى غيظا، فينتهى ذلك إلى نزاع عائلى لا ينتهى أكون فيه مثار النزاع.

كلا. لم تكن حياتى البيتية سعيدة ولكم أبتسم لنفسى ، وأنا أكتب عبارة حياتى البيتيه !

البيت ! لم يكن لى بيت بالمعنى الحديث لهذا الاصطلاح . فبيتى كان مجتمعا لا سكنى .

كنت فى رعاية أمى التى تعيش فى أى مكان إذا حل الليل ، ووجدت هذا المكان مرتفعا عن الأرض.

وأمى من الطراز القديم متعلقة بأشجارها . صحيح أن أعضاء قبيلتنا الأكثر تقدما يسكنون الكهوف فوق النهر ولكن أمى كثيرة الشك كما أنها كانت غير

تقدميه . وكانت تكفيها الاشجار ، وكانت لنا طبعا شجرة خاصة نجثم عليها . أما إذا فاجأنا الليل فى مكان بعيد عن هذه الشجرة ارتقينا أية شجرة لنقضى عليها الليل . أما الشجرة الخاصة فعند ملتقى فروعها منصة بدائية مكونة من أغصان الأشجار وبعض النباتات المتسلقة ، وهى أقرب شئ إلى عش طائر ضخم وإن كان نسيجه ، أغلظ ألف مرة من نسيج عش الطير ، كما أنه ينفرد بميزه أخرى هى أن له سقفا.

ولم يكن سقفا مثل تلك السقوف التى يصنعها الانسان الحديث ! كما أنه لم يكن سقفا كالذى يصنعه أقل الناس حضارة فى المناطق النائية ، بل فاق أى عمل يدوى بدائى، الانسان كما نعرفه جمع بعضه إلى البعض الآخر حسبما اتفق. ففوق ملتقى الفروع كومة من الأغصان والأعشاب الجافة انتصبت فوقها أربعة أو خمسة فروع متجاورة يمكن أن أصفها بانها قوائم الشرفة . وليست هذه القوائم أكثر من مجرد عصا غليظة لا يزيد سمك الواحدة منها عن بوصة أو ما يقاربها. ومن فوقها مدت بضعة أغصان وأعشاب جافة يبدو أنها ألقيت حسبما اتفق ولم تبذل أية محاولة لصنع سقف منتظم . ويجب أن أعترف بأن الأمطار الغزيرة كانت تتخلل هذا السقف بصورة تبعث على الرثاء.

ولكن الثرثار جعل الحياة البيتيه عبئا ثقيلا على أمى وعلى ولا أعنى بهذه الحياة العش نفسه بل الحياة التى تجمع ثلاثتنا. فقد كان شريرا فى اضطهاده إياى وبمرور الزمن أصبحت أمى أقل حماسا فى الدفاع عنى وأحسست من الضجيج المستمر الذى كان الثرثار يثيره أنى أصبحت مصدر ضيق لها ، وعلى أية حال فقد سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ بسرعة أوجبت على أن أهجر البيت بارادتى ولكن حتى لذة الرضى بقيامى بهذا العمل الاستقلالى حرمت منها إذ قبل أن أستعد للذهاب ألقى بى خارج البيت وأعنى هذا حرفيا.

فقد أتيحت الفرصة للثرثار ذات يوم ذهب فيه هو وأمى بعيداً نحو مستنقع التوت الأزرق، وتركانى وحدى فى العش. ولابد أنه دبر الأمر كله من قبل فقد سمعته عائدا وحده خلال الغابة يزأر مفتعلا الغضب ، ويتوقف من وقت لآخر يدق صدره ، بقبضة يده كشأن رجال قبيلتنا حين يغضبون .

وأدركت عجزى ، وضعف موقفى ، وقبعت فى العش أرتعد . وجاء الثرثار مباشرة إلى الشجرة ، وأذكر أنها كانت شجرة سنديان – وأخذ يتسلقها وهو لا يكف لحظة واحدة عن ضجته الجهنمية . ولغتنا كما قلت من قبل ضئيلة جدا ، ولابد أنه أرهق نفسه بتعدد الطرق التى استخدمها فى إبلاغى كراهيته إياى تلك الكراهية التى لاتنتهى واعتزامه تصفية الموقف معى فى تلك اللحظة.

وفى أثناء تسلقه الشجرة إلى العش ، هربت على طول فرع الشجرة الأفقى الكبير ، وتبعنى ، وأخذت أبتعد اكثر فاكثر وأخيرا أصبحت بين الاغصان الصغيرة والأوراق .. وكان الثرثار جبانا وحذرا ، دائماً يفوق أى غضب يفتعله ، خاف أن يتبعنى إلى خارج العش حيث الاغصان صغيرة لا تحتمل ثقله فيسقط قبل أن يلحق بى.

ولم يكن ضروريا أن يلحق بى ، وكان يعرف هذا جيدا ذلك الوغد ، وأخذ يتأرجح وقد ارتسم الحقد على وجهه ، ولمعت المعرفة القاسية فى عينيه الضيقتين ! وأخذ يتأرجح وأنا عند طرفى الغصن أمسك بطرفه الضعيف الذى أخذ يتشقق ، ويتكسر تحت ثقلى ، وأنا أرى الأرض تحتى على عمق عشرين قدما.

وظل يتأرجح بضراوة تتصاعد ، مكشرا عن أنيابه ، كاشفا عن كراهيته. وعندئذ جاءت النهاية فانكسر طرف الغصن الذى كنت ممسكا به وسقطت وظهرى إلى أسفل، وأنا أتطلع إليه ويداى وقدماى ممسكة بطرف الغصن المكسور ، ولحسن حظى لم تكن هناك خنازير برية تحتى كما أن فروع الشجرة المرنة تلقتنى فى سقطتى فرعا بعد الآخر.

والسقوط يحطم أحلامى فالصدمة العصبية كافية لعبور آلاف القرون فى لحظة لتوقظنى يقظة كاملة وأنا فى فراشى الصغير ، حيث أكون راقدا أتصبب عرقا ، وأرتعد ، وأنا أسمع الساعة فى البهو تدق معلنة الوقت ، ولكنى كثيراً ما رأيت نفسى فى الحلم أنا أخرج من بيتى على هذا النحو ، ومع ذلك ففى كل مرة كنت أستيقظ ، وأنا أسقط صارخاً فى الغابة ، وأصطدم بالأرض .

وظللت راقداً حيث سقطت وقد أصابتنى الخدوش والجروح ، وأنا أبكى وأتطلع إلى فوق ، فأرى الثرثار من خلال الشجرة ، وقد أخذ يغنى أغنية فرح شيطانى يضبط ايقاعها بتأرجحه .

وأسرعت بالكف عن البكاء إذ وجدت أن الاشجار لم تعد تحمينى ، وعرفت مبلغ الخطر الذى عرضت نفسى له بالتعبير عن حزنى بالبكاء بصوت مسموع ، يجلب لى الحيوانات المفترسة.

وأذكر أنى حين كففت عن البكاء ، بدأت أهتم بمراقبة التأثيرات الضوئية التى تنجم عن فتح وإغماض جفنى الملتهبتين بالدموع ، وأخذت أفحص آثار سقوطى فى جسدى ، ووجدت أنى لم أصب بعطب شديد . فلم يكن هناك أكثر من تسلخ جلدى هنا وهناك ، وغير طرف فرع الشجرة مكسور مشقق وحاد الطرف انغرس فى زندى بوصة كاملة أما فخذى اليمنى فكانت هى التى تحملت صدمة الارتطام بالأرض ، فأخذت تؤلمنى إيلاما يفوق طاقتى على الاحتمال . وهى كلها على كل حال أضرار طفيفة والمهم أن عظامى لم تنكسر وقد تميز لحم الانسان فى تلك الايام بقابلية للشفاء أكثر من قابليته لذلك الآن . ومع ذلك فقد كانت السقطة شديدة لأنى أخذت أعرج بسبب إصابتى فى فخذى اسبوعا كاملا.

وراودنى وأنا راقد فى الغابة إحساس بالوحشة وادراك بأنى شريد ، وقررت عدم العودة إلى أمى والثرثار . وفضلت أن أمضى بعيدا خلال الغابة الرهيبة حتى أجد لى شجرة أستقر فيها.

***

أما من ناحية الطعام فأنا أعرف أين أجده لأنى قضيت العام الماضى على الأقل أعتمد على نفسى فى البحث عن الطعام ، وأقلل من اعتمادى على أمى فى حمايتى وإرشادى .

وزحفت بهدوء بين الأشجار . وتطلعت ذات مرة إلى الوراء ، فرأيت الثرثار يغنى ويتأرجح . وكان منظره لايسر العين . وعرفت جيدا كيف أكون حذرا ، شديد الحذر فى رحلتى هذه ، وهى أول رحلة لى فى العالم .

ولم أفكر فى مكان معين أذهب إليه ، إذ كان هدفى الوحيد هو الابتعاد عن متناول يد الثرثار وارتقيت الأشجار ، وقضيت الساعات من شجرة إلى أخرى دون أن ألمس الأرض ، ولم أتجه وجهة معينة ولم أمض فى رحلتى قدما . كان من طبعى وطبع جميع أهلى فى القبيلة عدم المتابعة . وفضلا عن ذلك فلم أزد عن أن أكون طفلا ، وكثيرا ماتوقفت أثناء الطريق لألعب .

والأحداث التى وقعت لى أثناء مغادرتى بيتى يكتنفها الغموض ، وأحلامى خالية منها . وقد نسيت ذاتى الأخرى الكثير من تلك الأحداث ، وخاصة فى هذه الفترة بالذات . ولم تستطع جميع الأحلام المختلفة سد الثغرة التى تقع بين مغادرتى شجرة بيتى ووصولى إلى الكهوف .

كل ما أذكره أننى وصلت عدة مرات إلى أماكن مكشوفة خالية من الأشجار وأننى كدت أرتجف أثناء عبورى وأنا أجرى بأقصى ما وسعنى من سرعة . كانت هناك أيام ممطره وأيام أخرى مشرقة . ولابد أن أكون قد تجولت وحدى وقتا طويلا . وأرى فى أحلامى بصفة خاصة ما كنت أعانيه من شقاء أثناء المطر وما أحسه من جوع وكيف كنت أحاول تخفيف هذا العناء .

وقد تخلق فى ذهنى انطباع قوى جدا وهو انطباع صيد السحالى الصغيرة على قمة رابية صخرية مكشوفة وكانت السحالى تزحف تحت الصخور ويهرب أغلبها ولكنى كنت أقلب حجرا ما فأمسك واحدة منها .

وقد طاردتنى الثعابين وطردتنى من هذه الرابية . ولم تستمر فى مطاردتى بل كانت تكتفى بالاستمتاع بأشعة الشمس على الصخور ومع ذلك فقد كان خوفى منها ذلك الخوف الموروث الذى دفعنى إلى الهرب منها بنفس السرعة التى كنت أهرب إليها لو أنها أهتمت بمطاردتى .

كنت أقضم لحاء الأشجار الصغيرة ، وطعمه مر ، وأذكر بصورة غامضة أنى أكلت عدة ثمار بندق لم يتصلب غلافها بعد وكان قشرها هشاً وأذكر بوضوح شديد أنى كنت أعانى آلاماً فى المعدة وربما كان سبب ذلك البندق الأخضر أو السحالى ولست أستطيع على أى حال أن أحدد أيهما كان السبب .

ولكن الذى أعرفه فعلا هو أنى كنت سعيد الحظ ، إذ لم يلتهمنى حيوان ما أثناء الساعات العديدة التى تكورت فيها على الأرض من فرط الألم .

الفصل الخامس

وفجأة بعد أن خرجت من الغابة وجدت نفسي على حافة مكان مكشوف فسيح على أحد جانبي جرف عال وعلى الجانب الآخر نهر ، ينحدر شاطئه الطيني انحدارا شديدا نحو الماء ، وقد انهارت أجزاء من الشاطئ الطيني في عدة أماكن هنا وهناك ، وظهرت دروب يسلكها أعضاء القبيلة الذين يعيشون على الكهوف حين يطلبون الماء .

والكهوف هي المأوى الأساسي للناس . وقد ساقتني الصدفة إليها . بل أن تلك الكهوف هي القرية ، إن جاز لي التوسع في استخدام هذا التعبير . وأمي والثرثار وأنا وبعض البسطاء الآخرين ممن يمكن تسميتهم بسكان الضواحي جزء من القبيلة .

وإن كنا نعيش بعيدا عنها وهو بعد ليس شاسعاً، وبالرغم من ذلك فقد قطعته في أسبوع كامل، لأنني ضللت الطريق، ولولا ذلك لقطعت الرحلة في ساعة واحدة.

ولكن لنعد الآن إلى حيث كنت ، فقد رأيت وأنا على حافة الغابة الكهوف في طرف الأرض الفضاء المكشوفة والدروب المؤدية إلى النهر ، ورأيت في الأرض الفضاء عدداً كبيراً من أعضاء القبيلة وأنا ضال وحيد منذ أسبوع لم أر خلاله أحداً من نوعي . بل قضيت الأسبوع في رعب ووحدة فلما رأيت نوعي الآن غلبني الإحساس بالسعادة وجريت نحوهم بسرعة فائقة .

وعندئذ حدث شيء غريب . إذ رآني واحد من القوم وصاح صيحة تحذير فأسرع القوم بالهرب وهم يصيحون في خوف وذعر وقفزوا وتدافعوا فوق الصخور واختفوا داخل الكهوف .

أختفوا جميعا عدا واحدا منهم هو طفل صغير سقط من أيديهم فى لحظة الاضطراب بالقرب من قاعدة الجرف . وكان الطفل يولول فى حزن واندفعت أمه خارجة . وقفز الطفل للقائها وتعلق بها بقوة وهى تتعثر عائدة إلى داخل الكهف .

وأصبحت وحدى فى المكان الفسيح المهجور فجأة فجلست أبكى فى يأس دون أن أستطيع فهم ذلك السبب .

لماذا هربوا منى . قد علمت فيما بعد أنهم عندما رأونى مندفعاً من الغابة بأقصى سرعة ظنوا أن حيوانا مفترسا يطاردنى ، فخافوا وهم يروننى أقترب منهم دون كلفة .

وإذ جلست أرقب مداخل الكهوف ، أدركت أن القوم يرقبوننى وسرعان ما أطلوا برؤوسهم ، وبعد قليل أخذوا ينادون بعضهم بعضا لأنهم اضطربوا، وهم خائفون ، لم يدخل كل منهم كهفه ، بل لجأ البعض وخاصة الأطفال ، إلى كهوف البعض الآخر . ولم تكن أمهاتهم تناديهم بأسماء لأن التسمية اختراع لم نكن قد عرفناه بعد . وصاحت الأمهات صيحات قلق غاضبة ، وكان الصغار يدركونها ، ولو أن أمى كانت بينهم تنادينى ، لتعرفت على الفور على صوتها بين أصوات ألف أم ، لأنها كانت أيضاً تعرف صوتى بين أصوات ألف طفل .

واستمرت النداءات بعض الوقت ، ولكنهم كانوا غاية فى الحذر ، فلم يبرحوا كهوفهم أو ينزلوا إلى الأرض .

وأخيرا خرج واحد منهم قدر له أن يلعب دورا كبيرا فى حياتى ولعب من قبل أدوارا كبيرة فى حياة أعضاء القبيلة . وسأطلق عليه اسم «العين الحمراء» وسبب هذه التسمية عيناه الملتهبتان وجفناه الدائما الحمرة وتأثيرهما الغريب الذى ينذر بوحشيته الرهيبة .

إنه شيطان رهيب من كل ناحية . فهو من الناحية البدنية عملاق ولابد أنه يزن مائة وسبعين رطلا وهو أضخم من رأيت من نوعنا ، ولم أر أحداً قط من أهل النار أو من أهل الشجر فى ضخامته .

وإذا صادف أن قرأت فى الصحف أوصاف السجانين والملاكمين والمصارعين المعاصرين لتساءلت ماذا كان يمكن أن يصير إليه أمر أعظم واحد من هؤلاء لو

أنه التقى بالعين الحمراء؟ إذن لما كانت له أية فرصة للنجاة . فبقبضة واحدة من «العين الحمراء» بأصابعه الحديدية وجذبة واحدة يستطيع أن ينتزع عضلة من جذورها تماما سواء أكانت العضلة عضلة كتف أم عضلة فخذ ويفصلها عن جسدها ، وإذا هو أهوى بقبضة يده على جماجمهم لحطمها كقشر البيض وإذا ركلهم بقدمه أو (يده الخلفية) لأخرج أمعاءهم من بطونهم .

وإذا ثنى أعناقهم كسرها وأعرف أنه يستطيع أن يطبق فكيه على عنق رجل ما فتنفذ أسنانه من مقدمة العنق حتى النخاع الشوكى فى مؤخرة العنق .

وفى استطاعته أن يكون جالساً ثم يقفز أفقيا مسافة عشرين قدما . والشعر يغطى جسده بصورة شنيعة وكان من بواعث فخرنا ألا يكون شعرنا كثيفا ، ولكن الشعر يغطى جسده كله سواء فى ذلك باطن الذراعين وظاهرها بل والأذنين أيضا وليس فى جسمه مواضع خالية من الشعر سوى كفيه وبواطن قدميه وتحت عينيه . وهو قبيح بصورة مخيفة تتلاءم تكشيرته الوحشية عن أسنانه وشفته السفلى الضخمة المتدلية مع عينيه الرهيبتين .

هذا هو صاحب «العين الحمراء» وقد زحف خارجا من كهفه بنشاط وهبط إلى الأرض غير عابىء بشىء ومضى يستطلع الأمر .

ومشى منحنى القامة إلى الأمام إنحناء شديدا وذراعاه من الطول بحيث تلمس مفاصل أصابع يديه الأرض مع كل خطوة على هذا الجانب مرة وعلى الجانب الآخر المرة التالية وهو سخيف فى وضعه نصف المنتصب الذى اتخذه لنفسه فى مشيته وهو يلمس الأرض حقا بمفاصل يديه ليوازن نفسه. ولكن دعنى أقول لك أنه يستطيع الجرى علي أربع وهذا أمر كنا فيه غير بارعين .

وفضلا عن ذلك فمن النادر أن تجد بيننا من يستطيع موازنة نفسه بمفاصل أصابعه أثناء المشى . لأن من يفعل ذلك إنما يكون مرتدا إلى الأصل «والعين الحمراء» أكثرنا ارتدادا إلى الأصل .

كان ذلك ارتدادا إلى الأصل إذ كنا فى مرحلة التحول من حياة الشجر إلى الحياة على الأرض . تلك المرحلة التى اجتزناها فى قرون طويلة وفيها تناول التغير أجسامنا وسلوكنا ولكن «العين الحمراء» كان مرتدا إلى طراز أهل الشجر البدائيين .

وقد بقى معنا قهرا لأنه ولد فى قبيلتنا وبقى معنا ولكنه فى حقيقة الأمر كان مرتدا إلى الأرض وما كان موضعه معنا بل فى مكان آخر .

وأخذ يتحرك هنا وهناك فى حذر ويقظة فى المكان العراء يطل بين الأشجار محاولا أن يلمح الحيوان الذى شك الجميع فى أنه يطاردنى . وتجاهلنى وهو يفعل ذلك وتزاحم أعضاء القبيلة عند مداخل الكهوف يرقبون.

وأخيرا قرر بداهة أنه ليس هناك أى خطر كامن وعاد من رأس مورد الماء حيث أطل على المكان الذى تشرب الحيوانات الماء عنده واقترب منى ولكنه لم يلاحظنى حتى أصبح قبالتى .

وعندئذ وبدون انذار وبسرعة تفوق حد التصور لطمنى على رأسى فألقانى بعيداً إلى الوراء مسافة عشرة أقدام حيث استطعت الوقوف على قدمى . وأذكر أنى سمعت وقت وقوع اللطمة وقبل أن يصيبنى الذهول من أثرها ضجيج قهقهة وضحك صارخ آت من الكهوف . كانت دعابة كبيرة – على الأقل ذلك اليوم وقدرها الجميع تقديرا كبيرا صحيحا .

هكذا استقبلتنى القبيلة . ولم يعرنى صاحب «العين الحمراء» انتباها آخر وظللت حرا أبكى ماشئت حتى رضى قلبى . وتجمعت حولى عدة نساء فى فضول وعرفتهن حيث سبق أن قابلتهن فى العام الماضى حين اصطحبتنى أمى إلى وديان البندق .

ولكن سرعان ماتخلين عنى وتركننى وحيدا ثم جاء عشرة من الصبية الصغار الفضوليين المشاغبين وضربوا نطاقا حولى وأخذوا يشيرون بأصابعهم ويلعبون بملامح وجوههم وينخسوننى ويقرصوننى وأنا خائف منهم وتحملتهم بعض الوقت حتى غلب على الغضب فقفزت على أشدهم جرأة وهجمت عليه بأسنانى وأظافرى.

كان هذا هو «مسترخى الأذن» نفسه وقد أطلقت هذا الاسم عليه لأنه كان مستطيعا تحريك واحدة فقط من أذنيه أما الأخرى فكانت مدلاة خدرة لا تتحرك وذلك سببه وقوع حادث له من قبل أصاب عضلاتها وحرمه من استخدامها .

وأشتبكنا فى عراك وأشهدنا العالم علينا كغلامين يقتتلان وتبادلنا الخدش والعض وجذب الشعر والقرص والقذف على الأرض .

وأذكر أننى قد نجحت فى إمساكه على نحو أتاح لى فرصة التغلب عليه ولكنى لم أستمتع بها طويلا فرفع ساقا وركلنى بقدمه فى بطنى بوحشية حتى كاد يخرج أمعائى واضطررت لإخلاء سبيله لكى أنقذ نفسى وعدنا إلى التماسك بالأيدى .

و«مسترخى الأذن» يكبرنى بعام ولكن غضبى كان يعدل عدة أمثال غضبه وأخيرا أسرع بالهرب وطاردته عبر الأرض الفضاء ثم على طول الدرب النازل نحو النهر ولكنه كان أكثر منى معرفة بتلك المواقع فجرى على طول الشاطئ وصعد دربا آخر واختصر طريقه فى الأرض العراء بزاوية واندفع داخلا كهفا واسع المدخل .

ورأيتنى أدخل وراءه فى الظلام دون أن أدرك ذلك . وفى اللحظة التالية انتابنى خوف شديد إذ لم يسبق لى دخول أى كهف من قبل وأخذت أبكى وأصيح . وأخذ «مسترخى الأذن» يثرثر ساخرا منى وقفز على دون أن أراه وأوقعنى على الأر .

ومع ذلك فإنه لم يجازف بالدخول فى معركة أخرى بل أبتعد عنى وأنا أعترض سبيله إلى المدخل ولم يتجاوزنى ومع ذلك فقد بدا لى أنه أنصرف عنى وأنصت ولكنى لم أجد مايدلنى على مكانه . وحيرنى هذا . وعندما عدت إلى الخارج جلست أرقب .

ولم يخرج من مدخل الكهف ، هذا أكيد ، ومع ذلك فبعد انقضاء عدة دقائق سمعته يقهقه عند مرفقى وعدت أجرى وراءه وأسرع داخلا الكهف ولم أتبعه وقفت بمدخل الكهف ورجعت إلى الوراء مسافة قصيرة أراقب . ولم يخرج ومع ذلك فقد فعل مافعله من قبل إذ أخذ يقهقه عند مرفقى وطاردته مرة ثالثة إلى داخل الكهف.

وتكرر هذا العمل عدة مرات أخرى . ثم تبعته إلى داخل الكهف حيث بحثت عنه عبثاً وعجبت من هذا الأمر ولم أستطع أن أفهم كيف زاغ منى . كان دائما يدخل الكهف ولا يخرج منه قط ومع ذلك فكان دائما يأتى إلى مرفقى ويسخر منى . وهكذا تحول عراكنا إلى لعبة الاستخفاء «القط والفار».

وقضينا فترة مابعد الظهر كلها الا ما تخللها من فترات استراحة نمارس هذه اللعبة وتمت بيننا روح ودية لاهية .

وانتهت بأنه لم يهرب منى بل جلسنا معا وقد أحاط كلانا الآخر بذراعه . وبعد قليل كشف سر الكهف الواسع المدخل وأمسك يدى وقادنى إلى داخل الكهف فرأيته متصلا بكهف آخر عن طريق فجوة ضيقة بينهما ومن خلال الكهف الآخر عدنا إلى الهواء الطلق .

وأصبحنا صديقين حميمين . وعندما تجمع الصغار الآخرون حولنا للمشاغبة أنضم هو إلىّ فى مهاجمتهم وكان هجومنا شديدا إلى حد أنه لم ينقض وقت طويل حتى تركونى لشأنى وعرفنى «مسترخى الأذن» بالقرية.

ولم يكن مستطيعا أن يقول لى إلا القليل عن الظروف والعادات إذ لم تكن لديه الكلمات الضرورية . ولكنى تعلمت الكثير عن طريق مراقبة حركاته.

وأصطحبنى عبر الأرض العراء بين الكهوف والنهر وإلى داخل الغابة وراء الأرض العراء حيث أكلنا وجبة كاملة من الجزر النامى فى منطقة معشبة بين الأشجار . وبعد ذلك شربنا من النهر ومضينا نصعد الطريق إلى الكهوف .

وفى ذلك الطريق صادفنا صاحب «العين الحمراء» مرة أخرى فانكمش «مسترخى الأذن» جانبا وقبع إلى جانب الشاطىء وقلدته طبعا وتلقائيا . وعندئذ تطلعت لأرى سبب خوفه . كان صاحب «العين الحمراء» يتأرجح فى هبوطه وسط الطريق ويضيق عينيه الملتهبتين بوحشية . ولاحظت أن جميع الصغار ينكمشون لدى رؤيته كما فعلنا بينما كان الكبار يرمقونه بأعين متيقظة إذ يقترب ويبتعدون جانبا متخلين له عن وسط الطريق .

★ ★ ★

وجاء الغسق وأصبح المكان العراء مهجورا إذ أوى الجميع إلى كهوفهم ينشدون الأمان وتقدمنى «مسترخى الأذن» إلى الفراش . وارتقينا الجرف العالى حتى وصلنا إلى فجوة صغيرة ليمكن رؤيتها من الأرض . واعتصر «مسترخى الأذن» جسده فى هذه الفجوة وتبعته بصعوبة إذ كان المدخل شديد الضيق ورأيتنى فى غرفة صخرية صغيرة لايزيد ارتفاع سقفها عن قدمين ولا طولها عن أربعة أقدام أو عرضها عن ثلاثة أقدام . ونمنا معا تلك الليلة ونحن متعانقان .

الفصل السادس

وبينما ظل أكثر الصغار شجاعة يلهون باللعب داخل الكهوف ذات المداخل الواسعة ، وخارجها علمت أن هذه الكهوف خالية لاينام أحد فيها ليلا إذ لم تكن القبيلة تستخدم من هذه الكهوف الا ماكان مدخله ضيقا ، وكلما ضاق مدخل الكهوف كان أفضل تحاشيا للحيوانات المفترسة التى تجعل الحياة عبئا ثقيلا فى النهار أو الليل .

وقد علمت فضل الكهوف الضيقة المدخل فى الصباح الأول بعد أن نمت ليلتى مع «مسترخى الأذن» . إذ دخل النمر «سن السيف» الأرض المكشوفة مطلع النهار وكان هناك اثنان من أعضاء القبيلة قد بكرا باليقظة فاندفعا إلى داخل الكهف الواسع المدخل حيث كنت أنا و«مسترخى الأذن» نلعب بعد ظهر اليوم السابق ولا أعرف ما الذى دفعهما إليه . هل كان الذعر المفاجىء أم قرب النمر العجوز «سن السيف» الشديد منهما بحيث تعذر عليهما معه محاولة تسلق الجرف إلى مداخل الكهوف العلوية .

ولا سبيل إلى معرفة ماحدث داخل ذلك الكهف ولكن من العدل أن نستنتج أن الأثنين تسللا من الفجوة الموصلة بين الكهفين وهى أصغر من أن تسمح «لسن السيف» بالمرور منها فخرج من نفس الطريق الذى جاء منه وهو غاضب إذ لم يشبع حاجته .

وكان واضحا أنه لم يوفق فى صيده فى الليلة السابقة فجاء يتناول وجبته الغذائية من أجسام بعضنا ورأى الأثنين عند مدخل الكهف الآخر فقفز نحوهما واندفعا طبعا عبر الفجوة إلى الكهف الأول وخرج أشد غضبا منه قبلا وهو يزأر .

وسادت الفوضى بيننا وتزاحمنا جميعا عند مداخل الكهوف وخارج الشرفات ونحن نثرثر ونصرخ صرخات بنغمات متعددة ومتفاوتة ونكشر عن أنيابنا ونزمجر وهو عمل غريزى فقد كنا غاضبين غضب «سن السيف» إلا أن غضبنا كان مصحوبا بالخوف وخرجت وكشرت عن أسنانى على أحسن نحو فعله الآخرون ، ولم يكن هذا لرغبتى فى تقليدهم فحسب بل لقد أحسست الحافز فى أعماقى لأن أفعل نفس الأشياء التى يفعلونها ووقف شعر رأسى وانتفضت بهياج شديد لايعرف منطقا .

وظل «سن السيف» العجوز بعض الوقت وهو يندفع داخل وخارج أحد الكهفين ثم يندفع داخل وخارج الفجوة التى تفصل بين الكهفين ومراوغته .

وفى نفس الوقت بدأنا نحن فى أعلا الجرف العمل كلما ظهر قذفناه بالحجارة واكتفينا فى أول الأمر بإسقاط الحجارة عليه ، ولكن سرعان ما أخذنا نصوبها نحوه بقوة عضلاتنا .

واسترعى عملنا هذا انتباه «سن السيف» نحونا وزاد غضبه عما كان عليه قبلا. وكف عن مطاردة الرجلين ووثب يصعد الجرف معنا نحونا وهو ينشب مخالبه فى الصخر المتداعى ويزمجر أثناء صعوده وإزاء هذا المنظر المخيف لجأ القوم إلى داخل الكهوف . أعرف هذا لأنى أطللت برأسى ورأيت سطح الجرف خاليا مهجورا إلا من «سن السيف» الذى لم يعد يجد مكانا لأرجله وأخذ ينزلق ويسقط .

وصحت صيحة التشجيع وعادت القبيلة تغطى سطح الجرف بتصايح أعضاؤها وأخذت الحجارة تتساقط أسرع منها قبلا واستبد «بسن السيف» هوس الغضب وأخذ يهاجم الجرف من وقت لآخر ووصل فى إحدى المرات إلى مداخل الطبقة الأولى من الكهوف قبل أن يسقط ثانية ولكنه عجز عن دخولها ومع كل إندفاع منه إلى أعلى تغمرنا موجة خوف .

وفى أول الأمر كانت موجة الخوف تدفع أغلبنا إلى داخل كهوفهم ولكن بعضنا بقى خارج الكهوف مستمرين فى إلقاء الحجارة .

ولم يحدث من قبل أن عانى مخلوق له مثل هذه القوة من الإحباط ما عاناه «سن السيف» على هذه الصورة وجرح كبرياءه كثيرا أن تسخر منه جماعة

صغيرة رفيقة كهذه الجماعة . ووقف على الأرض وتطلع إلينا وزمجر وهز ذيله وهو يهم بفمه على الحجارة المتساقطة بالقرب منا . وفى ذات مرة ألقيت عليه حجرا . وتطلع فى اللحظة المناسبة إلى فوق فأصاب الحجر طرف أنفه مما جعله يقفز عاليا حتى أصبحت أرجله الأربعة فى الهواء وهو يزأر ويموء ألما ودهشة –

وهكذا هزم وعرف هو أنه هزم واستعاد كبرياءه ومشى فى وقار مبتعداً عن مطر الأحجار وتوقف وسط المكان المكشوف والتفت الينا فى حزن وجوع كارها التخلى عن وجبة طعامه وكنا لحما كثيرا يسد جوعه ولكن منالنا كان بعيدا عليه . ودفعنا منظره هذا إلى الضحك فضحكنا جميعا ساخرين مقهقهين . والحيوانات تكره السخرية إذ تثير غضبها .

وقد أثارت سخريتنا غضب «سن السيف» فاستدار وعاود مهاجمة الجرف وهذا هو ما أردناه بعد أن أصبح القتال لعبة وأبهجنا قذفه بالحجارة.

ولكن هجومه لم يطل إذ سرعان ما استعاد فهمه السليم وفضلا عن ذلك فإن قذائفنا أصبحت بارعة فى إصابته وإيلامه ، وأذكر بوضوح منظر إحدى عينيه وقد تورمت وبرز التورم حتى كاد يغلق فتحة العين من إثر إصابته بحجر ، وله فى ذاكرتى صورة حية وهو واقف على حافة الغابة حيث تقهقر نهائيا ، كان ينظر إلينا انفجرت شفتاه الملتويتان حتى كشفت جذور أنيابه الضخمة ووقف شعره واهتز ذيله وزأر لآخر مرة ثم اختفى عن الأنظار بين الأشجار .

ويالها من ثرثرة تلك التى ثارت عندئذ . خرجنا جميعا زرافات من كهوفنا نفحص آثار مخالبه على صخور الجرف المتداعية ونحن نتكلم فى وقت واحد. وكان أحد الذين أسرهما النمر فى الكهف المزدوج شابا فيه صفات الطفولة بارزة وقد خرجا من مخبئهما فخورين وأحطنا بهما معجبين بموقفهما .

وعندئذ شقت أم الشاب الجموع وهوت عليه فى هياج هائل تلطمه على أذنيه وتجذب شعره وتصرخ فى وجهه كالشيطان .

وكانت امرأة فارعة الطول ممشوقة القوام غزيرة الشعر . وأثار ضربها ابنها ابتهاج القبيلة وأخذنا نضحك ونتماسك حتى لا نسقط على الأرض من فرط الضحك بل أن بعضنا وقع وتدحرج على الأرض .

وبالرغم من فترة الخوف التى عشناها فإن القوم كانوا دائما ممعنين فى الضحك المستمر ، ولقد كان إحساسنا بالمرح إحساسا قويا فإذا استبد بنا المرح لم نملك له ضبطا ولم يكن هناك موقف وسط بل إذا وجد شيء مضحك تشنجنا تقديرا له وكانت أبسط الأشياء وأكثرها بدائية تثير ضحكنا وأستطيع أن أقول لك أننا كنا من كبار الضاحكين .

وأسلوبنا مع «سن السيف» هو نفس أسلوبنا مع جميع الحيوانات التى تغزو القرية واستطعنا الأحتفاظ بدروب هربنا وبأماكن ورودنا الماء مما جعل الحياة غاية فى الشقاء للحيوانات التى تنتهك حرمة أرضنا أو تضل سبيلها الينا .

وسببنا لأشد الحيوانات المتوحشة ضراوة حيرة شديدة حتى فضلت أن تتخلى لنا عن أماكننا . لم نكن نماثلها فى القدرة على القتال ولكننا كنا ماكرين وجبناء وبفضل المكر والجبن والإفراط فى الخوف استطعنا البقاء أحياء فى تلك البيئة المعادية لدرجة مخيفة والعالم فى بدايته .

وأتصور أن «مسترخى الأذن» يكبرنى بعام ولم تكن لديه وسيلة يذكر لى بها شيئا عن ماضيه ولكنى لم أر أما له ومن هذا أعتقد أنه يتيم ، وعلى كل حال فلم يكن للآباء حساب فى قبيلتنا إذ كان الزواج حتى ذلك الحين فى حالة بدائية وللأفراح طريقة خاصة للنزاع والانفصال ، والإنسان الحديث يفعل نفس الشيء قانونيا عن طريق نظام الطلاق أما نحن فلم يكن لنا قوانين بل كنا نسير وفقا للعادة ، وعادتنا فى أمر الزواج بالذات فوضى لا ضابط لها .

وبالرغم من ذلك وكما سيتبين فى هذه الرواية فيما بعد فإننا كشفنا عن دلائل براقة على عدم تعدد الزوجات أو تعدد الأزواج مما أضفى قوة على القبائل التى اعتنقت هذا الرأى وجعلتها غاية فى القوة. فضلا عن ذلك فقد كان فى الوقت الذى ولدت فيه عدة أزواج مخلصين يعيشون فوق الأشجار بالقرب من أمي، والحياة نفسها وقتئذ لم تكن تشجع على تعدد الزوجات وهذا هو السبب من غير شك فى أن الأزواج المخلصين كانوا يذهبون بعيدا عن القبيلة، ويعيشون وحدهم ويظلون عدة أعوام معا حتى إذا مات الرجل أو المرأة وأكله حيوان وجد الباقى شريكا لحياته .

★★★

وهناك شئ حيرنى كثيرا خلال الأيام الأولى التى قضيتها بين أهل القبيلة. سادنا خوف لا اسم له ولا عدوى منه . وبدا فى أول الأمر مرتبطا بالاتجاه فقد كان القوم يخشون الاتجاه الشمالى الشرقى وعاشوا فى خوف مقيم من تلك الناحية يحدقون النظر فى تلك الناحية أكثر وفى خوف أكبر مما يفعلون إذا هم نظروا إلى أية ناحية أخرى .

وعندما ذهبت أنا و«مسترخى الأذن» ناحية الشمال الشرقى لنأكل الجزر ذا الجذور الشائكة وهو فى ذلك الموسم فى أحسن حالاته أصابه الخوف بدرجة غير عادية وقنع «مسترخى الأذن» بأكل الجزر المتخمر والجزر الكبير الخشن والصغير الدقيق الذى يشبه الخيط ورفض المخاطرة بالتقدم مسافة قصيرة حيث الجزر لم تمتد إليه يد بعد . وعندما أقدمت على هذه المخاطرة عنفنى وتشاجر معى وجعلنى أفهم أن فى هذه الناحية خطرا رهيبا ولكن قلة حصيلته من اللغة لم تسمح له بأن يقول لى ما هو ذلك الخطر الرهيب .

وحصلت على وجبات غذائية طيبة على هذا النحو بينما كان يعنفنى ويثرثر عبثا . ولم أستطع أن أفهم وانتبهت وظللت منتبها ولكنى لم أستطع أن أرى أى خطر وظللت أحسب دائما المسافة بينى وبين أقرب شجرة وأنا أعرف أنى أستطيع أن أسبق «الأصفر النحاسى» أو «سن السيف» العجوز إلى ذلك المأوى أن ظهر أحدهما فجأة .

وحدث بعد ظهر أحد الأيام أن ثارت ضجة كبرى فى القرية فقد أثارت القبيلة فكرة واحدة هى فكرة الخوف وازدحم القوم على جانب الجرف والجميع يحدقون النظر ويشيرون إلى ناحية الشمالى الشرقي ولم أعرف ماذا وراء ذلك . ولكنى شققت طريقي بين الزحام صاعدا الجرف إلى الاقامة فى كهفى الصغير العالى دون أن ألتفت ورائى لأرى .

وعندئذ رأيت وراء النهر وبعيدا نحو الشمال الشرقى سر الدخان لأول مرة . كان ذلك أكبر حيوان رأته عينى قط وخطر ببالى أنه حية هائلة منتصبة ترفع رأسها بين الأشجار وهى تتأرجح إلى الوراء وإلى الأمام ومع ذلك فقد بدا لى من سلوك القوم أن الدخان نفسه لم يكن مصدر الخطر وبدا لى أنهم يخشونه على أنه

مقدمة شئ آخر . ولم أستطع التكهن بما عساه يكون ذلك الشئ الآخر ولا هم استطاعوا أن يقولوا لى ما هو ذلك الشئ الآخر، ومع ذلك فسرعان ما عرفت أنه شئ أشد هولا من «الأصفر النحاسى» ومن «سن السيف» العجوز ومن الحيات نفسها وبدا لى أنه لم تكن هناك أشياء أشد هولا منه .

الفصل السابع

وكان ذو السن المكسورة أحد الصغار الآخرين ويعيش وحده لأن أمه التى تعيش فى الكهوف رزقت بعده بطفلين آخرين فطرد من الكهف وترك له أمر تدبير حياته . وقد شهدنا ذلك الطرد خلال الأيام العديدة السابقة ولم تبهجنا هذه المشاهدة لأن ذا السن المكسورة لم يكن يريد الذهاب فكان ينتظر خروج أمه من الكهف ليعود إلى داخله متسللا حتى إذا عادت ووجدته داخل الكهف كان هياجها مبهجا ويأخذ أكثر من نصف أهل القبيلة فى الإقبال على مشاهدة مثل هذه اللحظات وأول ما يأتى من داخل الكهف صوت تعنيفها وصراخها ثم نسمع صوت الضرب وصراخ ذى السن المكسورة وعندئذ يشترك - الطفلان الصغيران فى الجلبة وأخيرا يخرج ذو السن طائرا من الكهف وكأنه قطعة من حمم بركان صغير.

وبعد انقضاء عدة أيام تم إخراجه من البيت وأخذ يندب أساه دون أن يعبأ به أحد وقضى فى الأرض المكشوفة قرابة نصف ساعة ثم جاء يقيم معنا أنا ومسترخى الأذن فى كهفنا الصغير ولكن الكهف اتسع لنا نحن الثلاثة إذ عصرنا أجسامنا فيه ولا أذكر عن ذى السن المكسورة أكثر من أنه قضى ليلة واحدة معنا مما يحتم أن يكون الحادث قد وقع عقب تلك الليلة مباشرة .

وجاء وقوع الحادث ظهرا . وكنا صباح ذلك اليوم قد أكلنا من الجزر ملء بطوننا ثم جعلنا اللعب لاهين عن كل شئ فمضينا فوق الأشجار الكبيرة وراء الحقل ولا أستطيع أن أفهم كيف نسى مسترخى الأذن حذره المعهود ولكن لابد أن يكون اللعب هو الذى أنساه إياه واستمتعنا بلعبة القفز على الشجر وياله من قفز !

كنا نقفز عشر قفزات أو خمس عشرة قفزة متتالية فلا يهمنا أن يسقط أحدنا على الأرض من ارتفاع عشرين أو خمسة وعشرين قدما . وإنى لأخشى فى الواقع أن أقدر المسافات الكبيرة التى كنا نسقطها على الأرض ولما كبرنا وثقل وزننا وجدنا أنه كان واجبا علينا أن نكون أكثر حذرا فى هذا السقوط ولكن أجسامنا فى تلك السن كانت أسلاكا وزنبركات فنستطيع أن نفعل أى شئ .

وأظهر ذو السن المكسورة خفة ملحوظة فى اللعب . وظهرت له أثناء اللعب قدرة لم تكن لى أنا أو مسترخى الأذن على القفز وفى الحقيقة خفنا أن نقلده فى قفزته .

فهو إذ يجرى نحو طرف فرع عال من شجرة معينة يرتفع عن سطح الأرض سبعين قدما وليس بينه وبين سطح الأرض شئ يخفف من تأثر السقطة وتحت ذلك الفرع وعلى عمق حوالى عشرين قدما منه وعلى بعد خمسة عشر قدما من الخط العمودى فرع شجرة أخرى سميك .

وإذ أخذنا نجرى على فرع الشجرة أخذ ذو السن المكسورة فى التأرجح فى مواجهتنا ولم يكن هذا طبعا بالذى يعوق تقدمنا ولكن الخطورة كانت عليه هو فى هذا التأرجح إذ كان ظهره ناحية القفزة التى سيقوم بها فى اللحظة التى نصل فيها إليه - وأخذ فرع الشجرة فى الاهتزاز كأنه لوح القفز فى حمام سباحة فألقاه بعيدا إلى الوراء وسقط وفى أثناء سقوطه استدار جانبا وهو فى الهواء حتى يستطيع أن يصبح فى مواجهة فرع الشجرة الأخرى السميك ليسقط عليه فلما سقط عليه فعلا انحنى هذا الفرع إلى تحت من تأثير ثقله وسمعنا صوت تشقق مخيف ولكن الفرع لم ينكسر ورأينا وسط الأوراق وجه ذى السن المكسورة وهو يبتسم لنا فى انتصار .

وفى آخر مرة حاول فيها ذو السن المكسورة هذه اللعبة كنت أنا الذى أطارده . ووصل إلى طرف الفرع وبدأ يتأرجح وأخذت أزحف نحوه وعلى حين فجأة سمعنا صيحة تحذير خافتة صادرة من مسترخى الأذن ونظرت إلى أسفل ورأيته فى النقطة الرئيسية التى تلتقى عندها فروع الشجرة وهو قابع بالقرب من جذع الشجرة وقبعت فورا بدافع غريزى فوق فرع الشجرة الغليظ وتوقف ذو السن

المكسورة عن الأرجحة ولكن فرع الشجرة لم يكف عن الاهتزاز واستمر جسده يعلو وينخفض مع حفيف الأوراق .

وسمعت صوت تكسر فرع شجرة جاف ونظرت إلى أسفل ورأيت أول من رأيت من أهل النار وكان يزحف خفية على الأرض ويرفع عينيه إلى داخل الشجرة وظننته أول ما ظننته حيوانا ضاريا لأنه كان يحيط وسطه بجلد الدب ويضع على كتفيه قطعة مهلهلة من نفس الجلد . ثم رأيت يديه وساقيه ثم ملامحه بوضوح أكبر. ورأيته كثير الشبه بالنوع الذى انتمى إليه فيما عدا أنه أقل شعرا وأن قدميه أقل مشابهة ليديه من مشابهة أقدامنا لايدينا . وقد عرفت فيما بعد أنه هو وقومه أقل شعرا منا وإن كنا بدورنا أقل شعرا من أهل الشجرة .

وخطر ببالى على الفور وأنا أنظر إليه أن هذا هو الرعب الآتى من الشمال الشرقى الذى كانت للدخان الغامض علاقة به وعلامة له . ومع ذلك فقد أصابتنى الحيرة .. فليس بالتأكيد شيئا يبعث الخوف فى النفس فإن العين الحمراء أو أى رجل من رجالنا الأقوياء أكثر من أن يكون مجرد ند له. فضلا عن ذلك فهو عجوز أصابته الشيخوخة بالضمور وشاب شعر وجهه كما أنه يعرج بإحدى ساقيه عرجا شديدا وليس هناك أدنى شك فى أننا نستطيع أن نسبقه فى الجرى وفى تسلق الشجر ومن المؤكد أنه لن يستطيع اللحاق بنا .

ولكنه يحمل فى يده شيئا ما وهو شئ لم يسبق لى أن رأيته من قبل . هذا الشئ هو قوس وسهم ولم يكن للقوس والسهم وقتئذ أى معنى عندى . ويا لهول ما علمت فيما بعد من أن الموت كامن فى قطعة الخشب المثبتة تلك. ولكن مسترخى الأذن كان يعلم ويبدو بداهة أنه رأى أهل النار من قبل وعرف شيئا عن أساليبهم.

ورفع رجل النار ناظريه نحوه ودار حول الشجرة ودار مسترخى الأذن هو الآخر حول الجذع الرئيسى للشجرة فوق ملتقى الاغصان جاعلا الجذع دائما بينه وبين رجل النار .

وعكس رجل النار دورانه فجأة وفوجئ مسترخى الأذن ولكنه أسرع هو الآخر فى عكس دورانه ولم يحصل على وقاية الجذع له إلا بعد أن صوب رجل النار سهمه . ورأيت السهم يقفز علوا ويخطئ مسترخى الأذن ويصيب فرع شجرة ثم

يعود ساقطا على الأرض ورقصت علوا وسفلا فوق فرع الشجرة العالى ابتهاجا بهذا . كانت لعبة ! فرجل النار يلقى على مسترخى الأذن شيئا كما نفعل نحن أحيانا ونحن نتقاذف الأشياء .

واستمرت اللعبة بعض الوقت ولكن مسترخى الأذن لم يعرض نفسه للإصابة أية مرة أخرى وعندئذ كف رجل النار عن المحاولة . وأخذت أميل بفرع الشجرة الأفقى كثيرا إلى الأمام وأنا أثرثر للرجل . أردت أن ألعب وأن أدعه يحاول إصابتى بذلك الشئ . ورآنى ولكنه تجاهلنى ووجه انتباهه إلى ذى السن المكسورة وهو يتأرجح قليلا رغما عنه عند طرف فرع الشجرة الذى وقف عليه .

وانطلق السهم الأول علوا . وصاح ذو السن المكسورة خوفا وألما فقد أصابه السهم فأضفى هذا طابعا جديدا على الموضوع ولم يعد اللعب يغنينى بل بقيت على فرع الشجرة وأنا أرتعد . وانطلق سهم ثان فثالث واخطأ كلا السهمين ذا السن المكسورة واهتزت أوراق - الشجر بتأثير السهمين وهما يمران خلالها ثم تقوسا فى الهواء وعادا إلى الأرض .

وجذب رجل الناس قوسه ثانية وغير موضعه ومضى بعيدا بضع خطوات ثم غير موضعه مرة - أخرى وأطلق السهم علوا وصرخ ذو السن المكسورة صرخة رهيبة وسقط عن فرع الشجرة ورأيته وهو يسقط ويتقلب فى الهواء أثناء سقوطه وبدا لى أنه كله قد استحال أذرعا وسيقانا وقد برز السهم فى صدره يظهر ويختفى مع كل دورة يدورها جسده .

وسقط سبعين قدما على الأرض وهو يصرخ بشدة واصطدم بالأرض بصوت مسموع وتكسرت عظامه وانتفض جسده قليلا ثم همدت حركته على الأرض . كان حيا لأنه تحرك وتلوى وقبض بيديه وقدميه على الأرض وأذكر أن رجل النار جرى إلى الأمام وبيده حجر وأخذ يدق رأس ذى السن المكسورة بالحجر - ولا أذكر ما وقع بعد ذلك .

وكان من عادتى دائما وأنا أرى هذه الأحلام فى طفولتى أن أستيقظ عند هذه المرحلة من الحلم وأنا أصرخ فزعا وكثيرا ما أجد أمى أو مربيتى بجوار فراشى فى لهفة وفزع وتمر بيدها المهدئة خلال شعرى وتقول لى أنها بجانبى ولا شئ يدعو إلى الخوف .

ويبدأ حلمى التالى طبقا للتعاقب دائما بهربى أنا ومسترخى الأذن فى الغابة ووقد ذهب رجل النار وذو السن المكسورة وشجرة الفاجعة . وأنا ومسترخى الأذن نهرب فى ذعر وحذر خلال الأشجار وبساقى اليمنى ألم شديد وقد برز من اللحم نصل السهم من ناحية وآخره من الناحية الأخرى. وهو السهم الذى أطلقه رجل النار . وكان السهم يسبب لى ألما شديدا ويعطل حركاتى ويجعل من المستحيل على أن ألحق بمسترخى الأذن .

وأخيرا تخليت عن ملاحقة مسترخى الأذن وبقيت فى مكان آمن عند ملتقى فروع شجرة واستمر مسترخى الأذن فى سيره قدما . وناديته بصوت شاك جدا فتوقف عن السير ونظر إلى الوراء . ثم عاد إلى وتسلق الشجرة إلى ملتقى فروعها وفحص السهم . وحاول أن يجذبه خارجا . ولكن اللحم قاوم رأس السهم الشائكة من ناحية ومن الناحية الأخرى قاوم طرف السهم المريش . وآلمنى هذا الطرف أيضا إيلاما شديدا محزنا ومنعته من المضى فى المحاولة .

وظللنا قابعين بعض الوقت . مسترخى الأذن فى حال عصبية وفى لهفة للذهاب، ويطل بصفة دائمة وفى خوف هنا وهناك وأنا أبكى بصوت خافت وأتأوه . وكان مسترخى الأذن فى حالة ذعر ومع ذلك فإنى أعتبر سلوكه وبقاءه بجانبى بالرغم من مخاوفه طليعة الغيرية والمزاملة اللتين ساعدتا الإنسان فيما بعد على أن يصبح أقوى الحيوانات .

وحاول مسترخى الأذن مرة أخرى جذب السهم من اللحم وأوقفته غاضبا . وهنا انحنى وأخذ يعض طرف السهم المريش بأسنانه وهو ممسك السهم بيديه فى حزم حتى لا يتسع الجرح وشاركته إمساك السهم . وغالبا ما أتدبر هذا المشهد مشهدنا نحن الاثنين جروين غير كاملى النمو فى طفولة الجنس البشرى أحدهما يسيطر على خوفه ويقمع دافعه الأنانى للهرب ليساند وينقذ الآخر . وعندئذ يظهر أمامى كل ما كان هذا مشيرا به فأرى دامون وبلفياس والغاطسين الذين ينقذون الغرقى - وممرضات الصليب الأحمر والشهداء وزعماء الآمال الضائعة والأب داميون والمسيح نفسه وجميع رجال الأرض العمالقة فى بنائهم والذين قد ترجع قوتهم إلى ظهور مسترخى الأذن وذى السن المكسورة وغيرهم من أهل العالم

البدائى .

ولما أتم مسترخى الأذن قضم رأس السهم تيسر جذب مقبض السهم بسهولة – وأخذت امضى ولكن مسترخى الأذن هو الذى أوقفنى هذه المرة . كانت ساقى تنزف دما غزيرا . ومما لاشك فيه أن بعض العروق الصغيرة تمزقت . وجرى مسترخى الأذن إلى طرف فرع شجرة وجمع قبضة من الأوراق الخضراء ودس هذه الأوراق فى الجرح فحققت الغرض وعندئذ مضينا معا عائدين إلى مجتمع الكهوف .

الفصل الثامن

وأذكر جيدا أول شتاء مر بى بعد أن غادرت موطنى فأحلامى طويلة عن جلوسى فى البرد وأنا أرتعد حتى نجلس أنا ومسترخى الأذن متلاصقين يحيط كلانا الآخر بذراعيه وساقيه . وقد حال لون وجهينا وأصبح أزرق واصطكت أسناننا واشتد القر بصفة خاصة قبيل الصباح . ونمنا خلال تلك الساعات الأولى من الصباح قليلا ونحن متعانقان فى شقاء نترقب شروق الشمس لتبعث الدفء فى جسدينا .

وعندما خرجنا وجدنا الجليد يتكسر تحت أقدامنا ورأينا ذات صباح ثلجا على صفحة الماء الهادئ فى الغدير حيث كانت الموردة وهناك تساؤل كثير عما يجب عمله وكان عظم النخاع العجوز أكبر أعضاء القبيلة سنا ولم يسبق له أن رأى – شيئا كهذا من قبل . وأذكر تلك النظرة المنزعجة الشاكة تظهر دائما فى أعيننا عندما نعجز عن فهم شئ أو عندما نحس وطأة رغبة غامضة لا يمكن التعبير عنها) بدأ على العين الحمراء هو الآخر الاكتئاب والشكوى عندما فحص الثلج وحدق النظر عبر النهر نحو الشاطئ الشمالى الشرقى كما لو كان يربط على نحو ما بين أهل النار وهذا الحدث الأخير .

ولكننا لم نجد الثلج إلا ذلك الصباح فحسب وكان هذا الشتاء أشد شتاء مر بنا بردا ولا أذكر أى شتاء آخر بلغ البرد فيه هذا المبلغ وغالبا ما خطر ببالى أن ذلك الشتاء البارد طليعة عدد لا يحصى من فصول شتاء باردة جاءت بعد ذلك مع زحف ذلك اللوح من الثلج من الشمال البعيد سفلا على وجه الأرض ولكننا لم نر ذلك اللوح من الثلج ولابد أن تكون عدة أجيال قد تعاقبت قبل أن تهاجر سلالة القبيلة جنوبا أو بقيت واستطاعت الملاءمة بين نفسها والظروف المتغيرة .

وسارت الحياة عندنا طبقا للرأى القائل أصب أو أفلت وحياة مرح ولا مبالاة . ولم نخطط إلا قليلا فإذا خططنا لم ننفذ مما خططناه إلا الأقل فنحن لا نأكل إلا إذا جعنا ولا نشرب إلا حين نحس العطش ونتحاشى الوحوش المفترسة ونأوى إلى الكهوف ليلا أما الراحة فهى نوع من اللعب أثناء الحياة وفضولنا شديد تسهل تسليتنا وذخيرتنا وفيرة بالحيل والمجون . وليس لنا إلى الجد سبيل إلا إذا أحاق الخطر بنا أو اشتد الغضب بنا وفى هذه الحالات ننسى الهزل ونتمسك بالجد .

ولم ننسج على منوال أو نعرف المنطق أو الترابط الفعلى .. ولم يكن لدينا غرض راسخ وهنا كان أهل النار يفرقوننا إذ تيسر لهم ما لم يتيسر لنا من هذه الأشياء إلا القليل جدا . ومع ذلك فقد كانت لنا قدم صدق فى مجال العاطفة والثبات عليها وفى هذا تفسير لولاء الزوج لزوجته الواحدة أو الزوجة لزوجها مما أشرت إليه من قبل الذى قد يبدو لأول وهلة بأنه حكم عادة ولكن هذا التفسير لا يصدق على رغبتى الطويلة الأمد فى «السريعة» .

وربما كان مرجع هذه الرغبة عداوتى للعين الحمراء تلك العداوة التى لا انقضاء لها .

ويحزننى بصفة خاصة ما اتصفنا به من عدم ترابط عقلى وعناء وذلك عندما استعيد ذكرى تلك الحياة الماضية وقد وجدت ذات مرة قرعة عسلية مكسورة ومقلوبة على جنبها وقد امتلأت بماء المطر وكان الماء عذبا فشربته وأخذت القرعة إلى الغدير وملأتها بمزيد من الماء شربت بعضه وصببت الباقى على مسترخى الأذن . وسحبت القرعة ولم يخطر ببالى قط أن أملأها ماء وأحملها إلى داخل الكهف رغم أنى كنت أحس العطش ليلا وخاصة بعد أكل البصل البرى أو الكرسون المائى ولا يجرؤ أحد على مغادرة الكهف ليلا ليشرب .

وحدث مرة أخرى أن وجدت قرعة عسلية جافة ولبذورها فى داخلها خشخشة فاصبحت مجرد لعبة وعلى كل حال لم يطل الوقت بعد ذلك حتى أصبح استخدام القرع العسلى فى تخزين الماء أمرا شائعا عند القبيلة ولكنى أنا كنت المخترع . ونسب الفضل فى الاختراع لعظم النخاع ومن العدل افتراض أن الضرورة التى حتمتها عليه الشيخوخة هى التى خلقت هذا الاختراع .

وعلى أية حال فان عظم النخاع كان أول من استخدم القرع العسلى بين أعضاء القبيلة وكان يحتفظ فى كهفه بقدر من ماء الشرب له ولابنه الأمر الذى كان هو مالك الكهف ولكنه سمح لأبيه بأن يشغل ركنا منه وكنا نرى عظم النخاع وهو يملأ قرعته عند المورده ويحملها بعناية ويصعد بها الجرف إلى كهفه . والتقليد ظاهرة قوية فى القبيلة . وبدأ واحد فثان فثالث فى إحراز قرعه عسلية واستخدامها على نفس النحو حتى عم استخدامها فى تخزين الماء .

ويتغيب عظم النخاع أحيانا بالمرض ويعجز عن مبارحة الكهف فيقوم الأمرد مقامه فى ملء القرعة له . وبعد ذلك بقليل جعل الأمرد ابنه ذا الشفة الطويلة يقوم بهذه المهمة نيابة عنه وبعد ذلك وحتى بعد أن عادت إلى عظم النخاع صحته ظل ذو الشفة الطويلة فى حمل الماء له وكف الرجال تدريجا عن حمل الماء إلا فى الظروف غير العادية وتركوا أداء هذه المهمة للنساء ولأكبر الأبناء . وكنت أنا ومسترخى الأذن مستقلين فلم نحمل الماء إلا لنفسينا وغالبا ما سخرنا من الصغار حاملى الماء إذ يستدعون من اللعب لملء القرع العسلى .

والتقدم عندنا بطيء كنا نلعب أثناء الحياة حتى الكبار منا كانوا يلعبون على نحو ما نفعله نحن الأطفال ولعبنا غير لعب الحيوانات الأخرى وأثناء اللعب نتعلم القليل بدافع من فضولنا وشدة تقديرنا . ومن هذه الناحية كان أكبر اختراع اخترعته القبيلة أثناء اقامتى بين أعضائها هو استخدام القرع العسلى وقد بدأنا تخزين الماء فى القرع العسلى تقليدا لعظم النخاع العجوز فحسب .

ولكن حدث ذات يوم أن ملأت إحدى النساء ولا أعرف من هى – قرعة عسلية بالتوت الأسود وحملتها إلى كهفها ولم يمض وقت طويل حتى كانت جميع النساء قد حملن التوت والبندق والجذور فى القرع العسلى . وكلما بدأت فكرة استمرت . وقد حدث تطوير آخر فى آنية الحمل بفضل النساء . ومما لاشك فيه أن قرعة أحد النساء كانت صغيرة جدا أو لعلها نسيت قرعتها فثبتت ورقتى شجر كبيرتين معا وحاكت أطرافهما بأعواد الاغصان الرقيقة فزادت كمية التوت التى حملتها إلى كهفها عما كان يمكن أن تضمها أكبر قرعة .

ولم نتجاوز هذا الحد فى وسائل نقل إمداداتنا الغذائية أثناء السنوات التى

عشتها فى القبيلة . ولم يخطر ببال أحد قط أن ينسج سلة من أغصان الصفصاف وكان الرجال والنساء أحياناً يحزمون أعواد وفروع نبات السرخس بأعواد الكروم المتينة ويحملونها إلى الكهوف ليناموا عليها وربما قضينا بين عشرة أجيال وعشرين جيلا فى الاجتهاد حتى وصلنا إلى نسج السلال . وهناك شئ مؤكد عن هذه الناحية وهو أننا حالما نسجنا السلال كانت الخطوة التالية نسج القماش وما تلا ذلك من صنع الثياب فلما ذهب العرى ظهر الحياء .

هكذا كانت البواعث فى العالم البدائى ولكن لم تكن لنا بواعث كنا نبدأ فحسب ونظل جيلا كاملا لا نتجاوز هذا البدء . ولم تكن لدينا أسلحة أو نار وكنا فى بداية الكلام أما اختراع – الكتابة فإنه كامن فى المستقبل البعيد بحيث يساورنى الخوف حين أفكر فيه .

وقد شارفت ذات مرة أن أكتشف اكتشافا عظيما ولكن أين لك كيف كان التطور مصادفة فى تلك الأيام أذكر لك أنه لولا نهم مسترخى الأذن لاستطعت استئناس الكلب وهو أمر لم يكن أهل النار الذين يعيشون فى الشمال الشرقى قد حققوه بعد ولم تكن لديهم كلاب وقد عرفت هذا من ملاحظاتى ولكن دعنى أقول لك أن نهم مسترخى الأذن كان السبب فى وقف تطورنا الاجتماعى عدة أجيال .

ويقع مستنقع كبير غربى كهوفنا وفى الجنوب سلسلة من التلال الصخرية المنخفضة وقليلا ما يرتادها الناس لسببين . أولهما : أنه لم يكن فيهما غذاء من النوع الذى نطعمه . وثانيهما أن هذه التلال حافلة بجحور الوحوش المفترسة .

وفى ذات يوم مضينا أنا ومسترخى الأذن ناحية التلال ولولا أننا كنا نشاغب نمرا لما ضللنا الطريق إلى هناك وأرجو الا تضحك فقد كان النمر هو سن السيف العجوز نفسه ولكننا كنا بأمن منه فقد صادفناه فى الغابة الصباح المبكر وأخذنا نثرثر له ونحن معتصمان بفروع الأشجار نعرب له عن نفورنا وكراهيتنا . وأخذنا نتنقل من غصن إلى آخر ومن شجرة إلى أخرى ونحن فوقه نثير ضجة هائلة منذرين كل سكان الغابة بمقدم سن السيف العجوز .

وأفسدنا عليه صيده على أية حال وأثرنا غضبه وكشر لنا عن أنيابه وهز ذيله وتوقف بين الحين والحين وحدق النظر فينا طويلا بهدوء كما لو كان يبحث فى ذهنه

عن طريقة يتصيدنا بها ولكننا اكتفينا بالضحك وننخسه بأطراف الأغصان وفروع الأشجار .

وكان إغراء النمر رياضة شائعة بين أهل القبيلة وأحيانا يخرج نصف أعضاء القبيلة يتبعون نمرا وأسدا يكون قد غامر بالخروج نهارا وهم فوق فروع الأشجار فكانت هذه هى وسيلتنا فى الانتقام لواحد أو أكثر من أعضاء القبيلة أخذ على غرة واستقر فى بطن النمر أو الأسد فكان تعذيب الحيوانات المفترسة وجعلها تشعر باليأس والخزى طريقتنا لإبعادها عن مواطننا وفضلا عن ذلك كان فيها لهو ورياضة كبيرة .

وعلى هذا النحو طاردنا سن السيف مسافة ثلاثة أميال فى الغابة وأخيرا وضع ذيله بين ساقيه الخلفيتين وهرب من نخسنا إياه كما يهرب الجرو من الضرب . وبذلنا قصارى جهدنا فى اللحاق به ولكن عندما وصلنا إلى طرف الغابة لم يعد يبدو منه غير خيط رفيع فى الأفق .

ولا أعرف ما حفزنا إلى هذا إلا أن يكون الفضول ولكن بعد أن لعبنا بعض الوقت مضينا أنا ومسترخى الأذن عبر الأرض العراء إلى حافة التلال الصخرية . ولم نمض بعيدا وربما لم تزد المسافة التى قطعناها خارج الغابة عن مائة ياردة ودرنا حول ناصية صخرية (ونحن حذران كل الحذر لأننا نعرف ماذا يمكن أن يصادفنا) وجدنا ثلاثة جراء تلعب فى الشمس .

ولم ترنا تلك الجراء ونحن نرقبها بعض الوقت كانت جراء كلاب مفترسة. وكان فى الجدار الصخرى شق أفقى – وواضح أنه العرين الذى كانت أم هذه الجراء قد تركتها فيه وكان يجب أن تبقى فيه لو أنها اطاعت إرادة أمها . ولكن حياة النمو التى دفعتنا أنا ومسترخى الأذن إلى الابتعاد عن الغابة دفعت الجراء خارج الكهف طيشا ونزقاً . وأعرف كيف كانت أمها تعاقبها إذا هى ضبطتها خارجا ولكننا نحن اللذان ضبطناها ونظر إلى ثم اندفعنا نحوها . ولم يكن للجراء ملجأ تجرى إليه سوى العرين فأبعدناها عنه واندفع واحد منها بين ساقى وقبعت وأمسكته وغرس أسنانه الصغيرة الحادة فى ذراعى فأسقطته من يدى تحت تأثير المفاجأة والألم . وفى اللحظة التالية أسرع بالدخول إلى العرين .

وبينما كان مسترخى الأذن يكافح مع الجرو الثانى قطب جبينه نحوى وأبلغنى بعدة أصوات أصدرها من فمه كم أنا أحمق وغبى وأشعرنى بالخجل وحفزنى لإظهار قدرتى وأمسكت الجرو الباقى بذيله وغرس أسنانه فى لحمى مرة أخرى وعندئذ أمسكته بقفاه وجلسنا أنا ومسترخى الأذن وأمسكنا الجروين ونظرنا إليهما وضحكنا .

وكشر الجروان عن أنيابهما وأخذا يعويان وفزع مسترخى الأذن فجأة إذ خيل إليه أنه سمع شيئا ونظر كلانا إلى الآخر فى خوف إذ تبينا خطورة موقفنا فالشىء الوحيد الذى يحيل الحيوانات إلى مردة هائجة هو ازعاج صغارها والجروان اللذان يثيران كل هذه الضجة ينتميان إلى الكلاب المفترسة وكنا على علم بها ورأيناها تجرى قطعانا وهى مصدر رعب للحيوانات أكلة العشب وراقبناها وهى تطارد قطعان الماشية والثيران وتجر العجول والماشية الهرمة والمريضة وقد حدث أن طاردتنا قطعان الكلاب المفترسة أكثر من مرة ، ورأيت ذات – مرة امرأة من القبيلة وهذه الكلاب تطاردها ثم وهى تمسكها فى الوقت الذى بلغت فيه ملجأها فى الغابة ولو لم يجهدها الجرى لارتقت الشجرة حالا وحاولت التسلق ثم انزلقت وسقطت فقضت الكلاب عليها .

ولم ننظر كلينا إلى الآخر بل جرينا نحو الغابة ونحن ممسكان بصيدنا حتى إذا بلغنا مأمنا على شجرة طويلة امسكنا الجروين وضحكنا مرة أخرى .

ثم بدأت أشق عمل حاولت القيام به . مضينا حاملين الجروين نحو كهفنا وبدلا من استخدام أيدينا فى التسلق كانت أيدينا معظم الوقت مشغولة بإمساك أسيرينا وهما يتلويان وحاولنا أن ننزل إلى الأرض ولكنا رأينا ضبعا شقيا يتبعنا تحت الشجرة وكان ضبعا حكيما .

وخطرت لمسترخى الأذن فكرة . تذكر كيف كان يحزم حزما من أوراق الشجر ويحملها إلى البيت لتكون فراشا . فقطع بعض أعواد الكرم الصلبة وقيد سيقان الجرو ثم أحاط عنقه بقطعة أخرى من هذه الأعواد وعلق الجرو وراء ظهره . وبهذا خلى يديه وقدميه للتسلق وابتهج ولم ينتظران أتم تقييد سيقان جروى بل مضى فى طريقه . ومع ذلك كانت هناك صعوبة فإن الجرو لم يبق متدليا وراء ظهر

مسترخى الأذن بل تأرجح ثم جاء من أمامه ولم تكن أسنانه مقيدة فكان أول ما فعله هو أن غرس أسنانه فى بطن مسترخى الأذن الناعمة الخالية من أى شىء يحميها وصرخ مسترخى الأذن . وكاد يسقط من فوق الشجرة وأمسك بكلتا يديه غصنا بعنف لإنقاذ نفسه وانحلت عقدة اعواد الكرم التى حول عنقه وسقط الجرو على الأرض وهو مقيد السيقان . وبدأ الضبع وجبته الغذائية .

واشمأز مسترخى الأذن وغضب وأخذ يسب الضبع ثم مضى وحده عبر الأشجار ولم أعرف سببا يدفعنى إلى حمل الجرو إلى الكهف أكثر من أنى أردت ذلك وثابرت على عملى . وجعلت هذا العمل أيسر كثيرا بالتوسع فى فكرة مسترخى الأذن . فلم أكتف بتقييد سيقان الجرو بل دفعت قطعة من الخشب بين فكيه واطبقت فمه عليها وقيدت الفم .

وأخيرا اوصلت الجرو إلى الكهف . ويخيل إلى أنى كنت أكثر اصرارا من أفراد القبيلة العاديين والا لما نجحت فى هذا . وضحكوا منى عندما رأونى أحمل الجرو إلى كهفى الصغير بأعلى الجرف ولكنى لم أعبا بضحكهم . وكللت جهودى بالنجاح وأصبح لدى الجرو وهو لعبة لا توجد عند أحد من أهل القبيلة . وتعلم بسرعة . وعندما كنت ألاعبه ويعضنى ألطمه على أذنه فيظل فترة طويلة لا يعضنى مرة أخرى .

وأحببته كثيرا فقد كان شيئا جديدا ومما يميز أعضاء القبيلة حبهم كل جديد . ولما رأيته يرفض الفاكهة والخضر أخذت أصيد الطيور والأرانب الصغيرة والسناجب له (وكنا نأكل اللحم كما نأكل الخضر كما كنا بارعين فى صيد الحيوانات الصغيرة) وأكل الجرو اللحم وأخذ ينمو ولابد أن يكون قد قضى فى صحبتى أسبوعا . وفى ذات يوم عدت إلى الكهف ومعى مجموعة من أفراخ الدجاج البرى ورأيت مسترخى الأذن وقد قتل الجرو وبدأ يأكله فقفزت على مسترخى الأذن فى الكهف الصغير – وتشابكنا بالأنياب والأظافر .

وهكذا انتهت بالقتال إحدى المحاولات الأولى لاستئناس الكلب وجذب بعضنا شعر البعض الآخر وخدش كلانا الآخر وعضه وحاول أن يقلع عينه وتجهمنا وتصالحنا وبعدئذ أكلنا الجرو نيئا ؟ نعم . لم نكن قد اكتشفنا النار بعد . وظل تطورنا نحو طهى الحيوانات فى ضمير المستقبل .

الفصل التاسع

كان العين الحمراء مرتدا إلى الأصل كما كان عنصر النشاز الكبير فى قبلتنا إذ كان أكثر بدائية من أى واحد منا ولم يكن ينتمى إلينا ومع ذلك فقد بلغت بنا البدائية حدا عجزنا معه عن بذل أى جهد تعاونى قوى كاف لقتله أو طرده . وبالرغم من أنه كان فظا كما كان تنظيمنا الاجتماعى فظا . فإنه كان أكثر فظاظة من أن يلائم بين نفسه والعيش فى هذا المجتمع وكان يميل دائما لتخريب القبيلة بأعماله التى تنافى الروح الاجتماعية وهو فى الحقيقة ارتداد إلى نموذج سابق والمكان المناسب له هو مع أهل الشجر لا معنا نحن الذين فى طريق تطورنا إلى البشر .

وهو شيطان فى قسوته وهذا قول رهيب فى ذلك العصر . فهو يضرب زوجاته وليس معنى هذا أنه يجمع بين أكثر من زوجة فى وقت واحد ولكنه تزوج عدة مرات ومن المستحيل أن تستطيع أية امرأة أن تعيش معه ومع ذلك فقد عشن معه اضطرارا أنه لا جدوى فى مخالفة رغبته فما كان أى رجل مستطيعاً أن يقف ضده .

وغالبا ما ترد لخاطرى رؤى عن ساعة الهدوء التى تسبق الغسق حين يأتى الناس من المورده ومن حقول الجزر ومستنقع التوت إلى المكان العراء أمام الكهوف وهم لا يجرؤون على التأخر عن هذه الساعة لأن الظلام المخيف يقترب وفيه يقع العالم فريسة للحيوانات المفترسة بينما يختفى أسلاف الإنسان فى جحورهم مرتعدين .

ويبقى لنا بعد ذلك بضع دقائق نتسلق بعدها الجرف إلى كهوفنا ونحن متعبون

من اللعب طول النهار وتخفت أصواتنا حتى صغار الأطفال الذين لا يزال بهم جشع للمرح واللعب يلعبون هنا فى كهوفهم - وقد هدأت الريح الآتية من البحر وطالت الظلال مع غروب - الشمس وعندئذ وعلى حين فجأة تأتى من كهف العين الحمراء صرخة ضارية وصوت لكمات أنه يضرب زوجته .

وخيم علينا صوت الخوف فى أول الأمر ولكن مع استمرار الضرب والصراخ ننفجر مثرثرين فى جنون ونحن غاضبون غضب الذين لا حول لهم ولا قوة . وواضح أن الرجال يستنكرون أعمال العين الحمراء ولكنهم أشد ما يكونون خوفا منه ويتوقف الضرب وتذوب التأوهات الخافته بينما نثرثر نحن فيما بيننا ويزحف الغسق الحزين علينا.

ونحن الذين نرى فى معظم الأحداث نكات لا نضحك أبدا أثناء ضرب العين الحمراء زوجته لأننا نعرف جيداً ما سيهن . وكثيرا ما حدث أن طالعنا الصبح فاذا عند سفح الجرف جثة آخر زوجة له . إذ ألقى بها بعد موتها من مدخل الكهف . ولم يعن العين الحمراء قط بدفن موتاه بل هو يكل إلى رجال القبيلة أمر رفع تلك الجثث إذ أنهم لو تركوها للوثت مكان إقامتهم وكانوا يلقون بها عادة فى النهر وراء آخر مورده .

ولم يكتف العين الحمراء بقتل زوجاته بل كان يقتل فى سبيل الحصول على هؤلاء الزوجات فهو عندما يريد زوجة جديدة ويقع اختياره على زوجة رجل آخر يقتل ذلك الرجل على الفور - ولقد رأيت بنفسى حادثى قتل من هذا اللون والقبيلة كلها تعرف ذلك ولكنها لا تستطيع له دفعا إذ لم نكن قد اخترعنا بعد نظام حكومة داخل القبيلة . وكل ما هنالك أنه كانت لنا عادات فإذا انتهكها شقى تعس أنزلنا عليه غضبنا ومن ذلك مثلا ذلك الذى يلوث المورده فإن كل من يراه يفعل ذلك يهاجمه على الفور . والذى ينذر القبيلة بخطر توهمه يناله من أيدينا ضرب عنيف أما العين الحمراء فهويتنهك كل عاداتنا ولكن خوفنا منه شديد إلى حد يعجزنا عن القيام بالعمل الجماعى الضرورى لمعاقبته .

وفى أثناء الشتاء السادس فى الكهف الذى اكتشفناه أنا ومسترخى الأذن تبينت أننا كبرنا حقا ومنذ البداية كان دخولنا الكهف يضطرنا إلى اعتصار

جسدينا حتى نستطيع المرور من مدخله الضيق . ولضيق مدخل الكهف ميزته على كل حال فهو يمنع الكبار من انتزاع كهفنا منا وهو كهف تتطلع إليه الأنظار بسبب وجوده فى أعلى الجرف وهو أكثر الكهوف أمنا كما أنه فى الشتاء أصغرها مساحة وأكثرها دفئا .

ولكى أبين لك مرحلة النمو العقلى للقبيلة اذكر لك أنه من أهون الأمور على البعض أن يطردونا من الكهف وأن يوسعوا مدخله . ولم نفكر أنا ومسترخى الأذن فى هذا الاحتمال حتى اضطررنا لازدياد حجمنا إلى توسيع المدخل . وقد حدث هذا أثناء فصل الصيف إذ زادت بدانتنا بسبب تحسن الكلأ وعملنا فى توسيع المدخل على فترات كلما خطر ذلك ببالنا.

وبدأنا بحفر الصخر الهش بأصابعنا حتى آلمتنا أظافرنا وخطرت ببالى مصادفة فكرة استخدام قطعة من الخشب فى الصخر . ونجح هذا العمل ولكنه سبب لنا مشكلة محزنة إذ ألقيت ذات صباح كومة من الشظايا المتخلفة عن الحفر من مدخل الكهف وفى اللحظة التالية جاءت من تحتنا صيحة غضب ولم نكن بحاجة إلى النظر فقد كنا نعرف الصوت جيدا إذ كان الركام قد وقع على العين الحمراء .

وقبعنا داخل الكهف فى ذعر . وبعد دقيقة واحدة رأيناه عند مدخل كهفنا ينظر إلينا بعينيه الملتهبتين وهو هائج كالمارد ولكن كبر حجمه حال دون وصوله إلينا وعلى حين فجأ مضى عنا على نحو آثار شكوكنا . وعلى ضوء ما نعرف من طبيعة أعضاء القبيلة قررنا البقاء حيث نحن حتى ينتهى غضبه. وزحفت إلى المدخل ونظرت إلى تحت ورأيته وهو يبدأ الصعود إلينا من جديد حاملا بإحدى يديه عصا طويلة وقبل أن أستطيع إدراك ما يعتزمه عاد إلى المدخل وأخذ يطعننا بعصاه فى وحشية طعنات هائلة من الممكن أن تبقر بطنينا لولا انكماشنا بجوار الجدران الجانبية حيث أصبحنا بعيدا عن متناول عصاه . ومع ذلك فقد نالنا بعصاه من وقت لآخر بطعنات قاسية تنزع الجلد والشعر كلما صرخنا من فرط الألم زأر زئير الرضى وزاد من طعننا .

وبدأت أغضب فى مزاج خاص وشجاعة كبيرة أيضا ولو أن هذا فى أغلبه

شجاعة الفأر المحاصر وأمسكت العصا بيدى ولكن قوته الهائلة مكنته من أن يجذبنى حتى مدخل الكهف ومد ذراعه الطويلة نحوى ومزقت أظافره جلدى وأنا أقفز عائدا إلى مكانى مبتعدا عن قبضته وأصبحت فى مأمن نسبى وأنا ملتصق بجدار الكهف .

وعاد يطعننا بعصاه من جديد ونالنى بضربة مؤلمة هوت على كتفى . ولم يفعل مسترخى الأذن أكثر من أن ارتعد خوفا وصرخ عند إصابته وبحثت عن عصا لأرد الطعنات ولم أجد غير طرف غصن طوله قدم وسمكه بوصة القيت به على العين الحمراء فلم يلحق به ضرر ومع ذلك فقد عوى وزاد هياجه لجرأتى على الرد عليه وأخذ يطعن فى هياج ثم رأيت شظية حجر فألقيتها عليه وأصابت صدره .

وأكسبنى هذا العمل جرأة وفضلا عن ذلك فقد أصبحت مثله غضبا وزال عنى كل خوف وانتزعت شظية من جدار الكهف تزن رطلين أو ثلاثة أرطال وقذفتها فى وجه العين الحمراء بكل ما أوتيت من قوة وكادت تقضى عليه إذ ترنح إلى الوراء وسقطت عصاه من يده وكاد يسقط عن الجرف .

وأصبح منظره وحشيا والدم يغطى وجهه وقد كشر عن أنيابه وكأنه خنزير برى ومسح الدم عن عينيه ورآنى وزأر فى هياج . ولما لم تعد لديه عصا فأنه أخذ ينتزع الشظايا من الصخر المهشم ويلقى بها على . وأمدنى عمله هذا بالذخيرة فرددت إليه ما قذفه على وعلى نحو أفضل مما كان هو يفعل لأنه كان هدفا طيبا بينما هو لا يرى منى إلا لمحات وأنا ملتصق بالجدار الجانبى .

وعلى حين فجأة اختفى مرة أخرى ورأيته من مدخل الكهف وهو يهبط الجرف وكان جميع أعضاء القبيلة قد تجمعوا فى الخارج وأخذوا ينظرون فى خوف لا ينطقون حرفا وفى أثناء هبوطه الجرف أسرع أشد الرجال خوفا إلى داخل كهوفهم ورأيت عظم النخاع العجوز وهو يترنح ماضيا بأقصى ما لديه من سرعة وقفز العين الحمراء عن الجرف إلى السفح وقطع فى هذه القفزة عشرين قدما طائرا فى الهواء وهبط بجوار أم كانت قد بدأت صعود الجرف وصاحت خوفا وأفلتت يدا طفلها ذى العامين والمتعلق بها وتدحرج عند قدمى العين الحمراء . ومد هو يديه ومدت الأم يديها للأمساك بالطفل ولكنه سبقها إليه فى اللحظة التالية دار

جسم الطفل الصغير فى الهواء وسقط على الجرف مرتطما فتحطم وجرت أمه إليه ورفعته بين ذراعيها وانحنت عليه تبكى .

ومضى العين الحمراء لالتقاط العصا . وقادت عظم النخاع العجوز قدماه إلى طريقه وامتدت يد العين الحمراء الكبيرة وقبضت على ظاهر عنق الرجل العجوز – وتطلعت منتظرا أن أرى عنق الرجل وقد انكسر . وخدر جسمه وهو يستسلم لمصيره وتردد العين الحمراء لحظة وارتعد عظم النخاع العجوز بشدة وأحنى رأسه وغطى وجهه بذراعيه المتشابكتين وعندئذ ضربه العين الحمراء وألقى به على الأرض فانكفأ على وجهه ولم يكافح عظم النخاع العجوز وظل راقدا يبكى مخافة الموت ورأيت الأمرد فى الأرض العراء يضرب صدره بيده وينتفش شعره ولكنه خائف من التقدم نحو أبيه . وهنا ترك العين الحمراء الرجل العجوز لشأنه بدافع نزوة طارئة من نزواته ومضى حيث استعاد عصاه .

وعاد إلى الجرف وتسلقه وعاد مسترخى الأذن من موقعه بجوارى حيث كان يرتعد فرقا وهو يطل من مدخل الكهف إلى الداخل . وبدا واضحا أن العين الحمراء يعتزم قتلنا وأصابنى التهور والغضب ولكنى التزمت الهدوء وأخذت أجرى رائحا غاديا بين طنف الجرف المتجاورة وجمعت كومة من الاحجار عند مدخل الكهف وأصبح العين الحمراء الآن على عمق عدة ياردات منى وأن أخفاه عن ناظرى نتوء فى الجرف وظهر رأسه وهو يتسلق فقذفته بقطعة حجر ولكنها لم تصبه بل أصابت سطح الجرف وتحطمت وأثارت ترابا ملأت الذرات المنبعثة منه عينيه فاختفى عن ناظرى .

وانبعثت من القبيلة الضحكات والثرثرات وهى ترقب ما يجرى . فقد ظهر أخيرا من بين أبناء القبيلة من يستطيع أن يواجه العين الحمراء وإذ ارتفع فى الهواء صدى الموافقة والاستحسان كشر العين الحمراء لهم عن أنيابه فلجأوا إلى الصمت فورا – وتشجع بهذا الدليل على قوته وبرز برأسه وحاول تخويفى بتقطيب جبينه والتكشير عن أنيابه وهو يقرض بأسنانه وتقطيب جبينه رهيب وهو يجذب فروة رأسه فوق حاجبيه ويوقف شعر قمة رأسه حتى تبدو كل شعرة منها واقفة على حدة بارزة إلى الأمام.

وأخافنى منظره ولكنى سيطرت على خوفى وهددته بقطعة حجر فى يدى ومع ذلك حاول أن يتقدم فقذفته بقطعة الحجر ولم تصبه وقذفته بقطعة أخرى فأصابت عنقه وانزلق إلى الوراء واختفى عن ناظرى ولكنى رأيته وهو يختفى ممسكا الجرف بيد وعنقه باليد الأخرى وسقطت العصا على الأرض بصوت مسموع .

ولم أعد مستطيعا رؤيته ولكنى استطعت أن أسمعه وهو يكاد يختنق ويسعل وله شخير وظل الجمهور ملتزما صمت القبور . وقبعت على حافة الكهف وانتظرت وكف عن السعال والشخير وسمعته من وقت لآخر وهو يخلى حنجرته من الحشرجة . وبعد قليل عاد يهبط الجرف بهدوء ويتوقف من لحظة لأخرى ويمط عنقه أو يتحسسه بيده .

وإذ رأته القبيلة يهبط الجرف تسابق أعضاؤها إلى داخل الغابة وهم يتصايحون صياحا شديدا وتبعهم عظم النخاع العجوز وهو يصرخ ولم يحفل العين الحمراء بهربهم ولما وصل إلى الأرض دار حول قاعدة الجرف وصعد إلى كهفه دون أن يلتفت حوله قط .

وحدقت النظر فى مسترخى الأذن كما حدق هو النظر فى . وفهم كلانا الآخر وأخذنا على الفور نصعد الجرف بحذر وهدوء حتى بلغنا القمة تلفتنا وراءنا ورأينا المساكن كلها مهجورة وظل العين الحمراء فى كهفه بينما اختفت القبيلة فى أعماق الغابة .

واستدرنا وجرينا واندفعنا عبر المكان العراء وعبرنا المنحدرات دون أن نعبأ باحتمال وجود ثعابين بين العشب حتى بلغنا الغابة . وصعدنا الأشجار ومضينا قفزا فوقها وتأرجحنا من فرع شجرة لآخر حتى قطعنا أميالا . وعندئذ توقفنا عند ملتقى فروع شجرة وهو ملتقى آمن . ونظر كلانا إلى الآخر وأخذنا نضحك وتشابكنا أذرعا وسيقانا ونظر كلانا للآخر وأخذنا نضحك وأعيننا تطفر دموعا وجنوبنا تؤلمنا بسبب الضحك ومضينا نضحك ونضحك ونضحك .

الفصل العاشر

وبعد أن انتهينا من الضحك كففنا عن الجرى وتناولنا طعام افطارنا فى مستنقع التوت الأزرق وهو نفس المستنقع الذى ذهبت إليه فى أول رحلة لى فى العالم منذ سنوات فى صحبة أمى . ولم أر أمى منذ ذلك الوقت إذ كان يحدث أثناء زيارتها القبيلة فى الكهوف أن أكون أنا فى الغابة . ولمحت الثرثار مرة أو مرتين فى الأرض العراء واستمتعت بلحظات قضيتها فى السخرية منه بملامح وجهى وفى إغضابه وأنا عند مدخل كهفى . وفيما عدا ذلك تركت أسرتى وشأنها ولم أهتم بها إذ نجحت فى تسيير دفة حياتى .

وبعد أن ملأنا بطنينا بالتوت وتناولنا ما وجدناه فى عش طائر السمان من بيض كان على وشك الفقس كلون من الحلوى . تجولنا أنا ومسترخى الأذن فى حذر داخل الغاب ناحية النهر . هنا حيث توجد الشجرة التى فيها بيتى القديم والتى طردنى الثرثار منها لا يزال البيت آهلا بسكانه الذين زادوا عددا وهناك طفل صغير متعلق بأمى وهناك فتاة شبه نامية وهى تنظر إلينا فى حذر من فوق أحد فروع الشجرة الدنيا وهى بداهة أختى أو أختى غير الشقيقة.

وعرفتنى أمى ولكنها أنذرتنى حين بدأت أتسلق الشجرة واشارت إلى بالابتعاد وتقهقر مسترخى الأذن إذ كان أكثر منى حذرا ولم أستطع إقناعه بالعودة . وقد نزلت أختى فيما بعد إلى الأرض وهناك بين الأشجار المجاورة لعبنا نحن الثلاثة ولهونا . ثم حلت المتاعب . كانت أختى ومع ذلك فلم يمنعها هذا من أن تسىء معاملتى لأنها ورثت كل ما فى الثرثار من شر وعلى حين غفلة انقلبت على وهاجت هياجا شديدا وخدشتنى ومزقت شعرى وأنفذت أسنانها الصغيرة الحادة فى

ذراعى وفقدت صبرى ولم ألحق بها أية إصابة ولكنى من غير شك لطمتها لطمة شديدة لم يكن لها بمثلها عهد من قبل .

صاحت وصرخت وسمعها الثرثار الذى كان بعيداً طول يومه لتوه وأسرع إليها واندفعت أمس كذلك ولكنه سبقها. ولم ننتظر أنا ومسترخى الأذن مقدمه بل هربنا بعيداً وطاردنا الثرثار خلال الأشجار وهو يريد القضاء على حياتنا.

وانتهت المطاردة وضحكنا أنا ومسترخى الأذن كفايتنا ثم اكتشفنا أن الليل يوشك أن يخيم. هنا الليل بكل ما فيه من أهوال يوشك أن يهبط علينا وما كنا بمستطيعين بحث مسألة العودة إلى الكهوف فالعين الحمراء يجعل ذلك مستحيلاً ولجأنا إلى شجرة منعزلة عن بقية الأشجار وقضينا الليلة على ملتقى فروعها العالى وكانت ليلة تعسة إذ ظلت السماء تمطر بغزارة طوال الساعات القليلة الأولى ثم اشتد البرد علينا وهبت ريح قاسية البرد علينا وابتلت أجسامنا وارتعدت أطرافنا واصطكت، أسناننا واحتضن كلانا الآخر وافتقدنا الكهف الجاف المريح الذى سرعان ما يسرى فيه الدفء بحرارة جسمينا.

وطلع الصباح علينا فإذا نحن شقيان صمما على عدم قضاء مثل هذه الليلة مرة أخرى وتذكرنا كيف يدبر الكبار مأوى لهم. وبدأنا نبنى مأوى مماثلاً للذى يبنونه وصنعنا إطار عش بدائى وعلى ملتقى فروع شجرة عالية جئنا بعدة أعمدة للسقف ثم أشرقت الشمس، وتحت تأثيرها المحمود العاقبة نسينا متاعب الليل ومضينا نبحث عن طعام لافطارنا.

ولكى أبين لك عدم تتابع الحياة فى تلك الأيام أقول لك أننا مضينا نلعب. ولابد أن نكون قد قضينا شهراً ونحن نعمل بصورة متقطعة فى بناء بيتنا على الشجرة حتى إذا تم البناء لم نستخدمه مرة أخرى.

ولكنى بهذا أسبق قصتى، عندما مضينا نلعب بعد تناول طعام افطارنا فى يومنا الثانى بعد مغادرتنا الكهوف قادنى مسترخى الأذن ونحن نلعب لعبة المطاردة بين الأشجار نحو النهر. حيث تدخله بركة كبيرة آتية من مستنقع التوت الأزرق ومصب هذه البركة عريض وليس فى البركة نفسها تيار مائى وتتوسط هذا الماء الراكد عند المصب كتلة متشابكة من جذوع الأشجار نالت السيول من بعضها

وجففت فصول الصيف الطويلة بعضها الآخر وأصابته بالضمور وأسقطت عنه فروعه. كانت الكتلة طافية عالية فوق الماء تهتز علوا وسفلاً وعندما حططنا عليها انقلبت بنا.

وهنا وهناك بين الجذوع شقوق تكشف عن مجموعات من الأسماك الصغيرة فى الماء تحتها وهى تندفع إلى الامام وإلى الوراء وأصبحنا أنا ومسترخى الأذن على الفور صيادى سمك رقدنا منبطحين على الكتل الخشبية والتزمنا السكون وانتظرنا حتى اقترب السمك ثم مددنا أيدينا بسرعة وأكلنا ما صدناه فى نفس المكان وهو يتلوى بين أيدينا ولم تبرحه رطوبته بعد ولم نلاحظ نقص الملح.

وأصبح مصب البركة ملعبنا المفضل وظللنا نقضى عدة ساعات كل يوم نصيد السمك ونلعب على الكتل الخشبية وهنا وفى ذات يوم تعلمنا دروسنا الأولى فى الملاحة إذ طفت كتلة الخشب التى كان مسترخى الأذن راقداً عليها وهو متكور على جنبه مستغرق فى نومه وهبت ريح خفيفة ومضت كتلة الخشب تلك بعيداً عن الشاطىء ولاحظت المأزق الحرج الذى صار إليه ولكن المسافة بيننا أصبحت من الاتساع بحيث لا يستطيع قفزها.

وبدا الأمر لى فى أوله مثيراً للمرح فحسب ولكن عندما تحرك فى داخلى أحد دوافع الخوف التى كانت شائعة فى العصر الذى عشنا فيه وهو عصر عدم الأمان أدركت فجأة ان ابتعاد مسترخى الأذن عنى وهو فوق ذلك العنصر الغريب على بعد بضعة أقدام فيه خطورة على وصحت فيه بصوت عال صيحة تحذير فاستيقظ وخاف ونقل ثقله بتهور فوق قطعة الخشب فانقلبت وغطس تحتها. وحاول ثلاث مرات أن يعلوها ولكنها مع كل محاولة من هذه المحاولات كانت تنقلب وتجعله يغطس تحتها وأخيراً نجح فى محاولته وقبع عليها وأخذ يثرثر خوفاً.

ولم أستطع أن أفعل شيئاً ولا هو استطاع أن يفعل شيئاً إذ لم نكن نعرف شيئاً وقتئذ عن السباحة لأننا كنا بين مرحلتين مرحلة الأشكال الدنيا للحياة التى لغريزة السباحة أهمية فيها ومرحلة البشرية التى تستخدم السباحة فيها وسيلة لحل مشكلة ما. وأخذت أجوب الشاطىء رائحاً غادياً وأنا فى كرب شديد محاولاً الاقتراب منه ما استطعت وهو فى رحلاته اللاإرادية يبكى ويصيح حتى أثار عجبى كيف لم يجلب علينا بكاؤه وصياحه كل حيوان مفترس.

ومرت الساعات وارتفعت الشمس فوق سمت السماء ثم بدأت تميل نحو الغرب وهدأت الريح الخفيفة وتركت مسترخى الأذن على كتلته الخشبية طافياً على بعد مائة قدم وهنا وعلى نحو ما اكتشف مسترخى الأذن اكتشافاً كبيراً ولا أدرى كيف تم له ذلك. أخذ يجدف بيديه. وكان تقدمه فى أول الأمر بطيئاً غير منتظم ثم استقام له الأمر وأخذ يجد فى التجديف ويقترب منى أكثر فأكثر. ولم أستطع أن أفهم ما أرى وجلست أرقب وأنتظر حتى بلغ الشاطىء.

ولكنه تعلم شيئاً لم أتعلمه أنا. وبعد الظهر انطلق بالكتلة الخشبية بعيداً عن الشاطىء متعمداً وبعد ذلك أقنعنى بالانضمام إليه وتعلمت أنا الأخر لعبة التجديف ولم نستطع الابتعاد عن بركة الماء طول الأيام العديدة التالية إذ استغرقتنا لعبتنا الجديدة إلى حد أهملنا معه طعامنا بل أننا أخذنا نأوى إلى شجرة قريبة ليلاً ونسينا العين الحمراء.

وأخذنا نجرب كتلاً خشبية جديدة كل يوم وتعلمنا أنه كلما صغر حجم الكتلة الخشبية زادت قدرتنا على جعلها تسير بسرعة أكبر. وتعلمنا أيضاً أنه كلما صغر حجم الكتلة الخشبية زاد احتمال انقلابها ووقوعنا فى الماء. وهناك شىء أخر تعلمناه خاصاً بالكتل الخشبية الصغيرة ففى ذات يوم جدفنا كتلتينا الخشبيتين كلانا بمحاذاة الآخر وعندئذ اكتشفنا بمحض الصدفة أنه عندما يمسك كلانا كتلة الآخر الخشبية بيده وقدمه استقرت ولم تنقلب وهكذا كنا نرقد كلانا على كتلته الخشبية فى هذا الوضع وتبقى يدانا وقدمانا الخارجية حرة نجدف بها ثم جاء اكتشافنا الأخير وهو أن هذا الترتيب ساعدنا فى استخدام كتل خشبية أصغر حجماً وبها حققنا سرعة أكبر وهنا انتهت اكتشافاتنا. وبذلك اخترعنا أول طوف بدائى ولم يكن لنا من العقل ما يسمح لنا بمعرفة ذلك. ولم يخطر ببالنا قط أن نربط الكتل الخشبية بأعواد الكروم المتينة أو الجذور الطويلة بل اكتفينا بإمساك الكتلتين بأيدينا وأقدامنا.

ولم نجد «السريعة» إلا بعد أن أشبعنا حماسنا الأول للملاحة وبدأنا نعود إلى مأوانا على الشجرة لننام ليلاً. وقد رأيتها أول ما رأيتها وهى تجمع ثمار البلوط الصغيرة من فوق فروع شجرة بلوط كبيرة بالقرب من شجرتنا. وخافت خوفاً

شديداً وظلت أول الأمر ساكتة تماماً ولكنها عندما تبينت أن أمرها قد انكشف هبطت على الأرض واندفعت مسرعة بعيداً وأخذنا نلمحها أحياناً من يوم لآخر وأخذنا نجىء لنبحث عنها فى انتقالنا بين شجرتنا ومصب البركة.

وفى ذات يوم لم تهرب منا بل انتظرت وأخذت تصدر أصوات سلام خافتة ومع ذلك لم نستطع الاقتراب منها. إذ كلما بدا أننا دنونا كثيراً منها اندفعت تجرى مبتعدة عنا على حين فجأة حتى إذا بلغت مكاناً آمناً أخذت تصدر أصوات السلام الخافتة مرة أخرى واستمر هذا بضعة أيام ولستغرقنا وقتاً طويلاً حتى تعرفنا بها وشاركتنا لعبنا أحيانا.

وأحببتها منذ النظرة الأولى فمظهرها يرضى العين وهى معتدلة المزاج وعيناها أكثر ما رأيت من العيون عنوية وهى فى هذا تختلف تماماً عن بقية فتيات ونساء القبيلة اللواتى يولدن مسترجلات وما كانت تصيح صيحات غاضبة قط بل كانت تبدو وكأنما طبيعتها الهرب من المتاعب لا البقاء والقتال.

ويبدو الاعتدال الذى ذكرته منبعثاً من كيانها كله إذ كان مظهر جسدها كمظهر وجهها سبب هذا الاعتدال فعيناها أكثر عيون بنات جنسها اتساعاً وليستا غائرتين فى تجويفهما بينما أهدابها أطول وأكثر انتظاماً من أهداب الفتيات الأخريات وليس فى أنفها غلظة كما انه غير مربع بل لها قصبة أنف وفتحتاه إلى تحت. وأنيابها غير طويلة وليست شفتها العليا طويلة متدلية إلى تحت أو شفتها السفلى بارزة كشأن غيرها من الفتيات وشعرها غير غزير إلا فى ظاهر الذراعين والساقين وعلى الكتفين وهى ضامرة الفخذين وليس فى باطنى ساقيها انثناء أو اعوجاج.

وكثيراً ما أتساءل وأنا أسترجع ذكراها الآن فى القرن العشرين عن طريق أحلامى فيخطر ببالى احتمال أنها تنتمى إلى أهل النار. وربما كان أبوها أو أمها منحدرة من تلك السلالة الاكثر رقياً. وأن لم تكن هذه الأشياء شائعة إلا انها مع ذلك كانت تحدث ولقد رأيت برهان ذلك بعينى إلى حد أن بعض أعضاء القبيلة كانوا يخرجون عليها ويذهبون للاقامة مع أهل الشجر.

ولكن هذا لا يجرى دائماً. وكانت السريعة تختلف اختلافاً جوهرياً عن أية أنثى

فى القبيلة وشعرت بميل إليها منذ أول نظرة وقد اجتذبتنى إليها باعتدالها ورقتها. لم تكن عنيفة ابداً ولم تقاتل ابداً بل كانت تهرب دائماً وننوه هنا بأهمية تسميتها بهذا الأسم فهى أكثر منى أنا ومسترخى الأذن إجادة لتسلق الأشجار وعندما نلعب لعبة المطاردة لا نقدر على اللحاق بها ابداً إلا مصادفة بينما تستطيع هى إمساكنا متى أرادت ذلك. كانت سريعة بدرجة ملحوظة فى جميع حركاتها كما كانت عبقرية فى الحكم على المسافات بدرجة لا تساويها إلا جرأتها. وبينما هى شديدة الخوف فى جميع النواحى الأخرى فهى لا تعرف الخوف فى تسلق الشجر والجرى بين الأشجار أما أنا ومسترخى الأذن فأننا نرتبك وتثقل حركتنا ويشتد جبننا.

وكانت يتيمة فلم نرها مع أحد ولم يكن هناك سبيل نعرف به كم عاشت وحيدة فى العالم. ولابد أنها تعلمت مبكرة فى طفولتها التى لم يكن لها فيها معين أن السلامة فى الهرب كما كانت غاية فى الحكمة والفطنة. وأصبحنا أنا ومسترخى الأذن نجد فى محاولة اكتشاف موطنها لعبة لنا. إذ من المؤكد أن لها مأوى فى شجرة فى مكان ما وليس هذا المكان بعيداً ولكننا لم نستطع العثور على موطنها رغم كل المحاولات التى بذلناها. وكانت راغبة فى مشاركتنا فى اللعب نهاراً ولكنها حرصت أبلغ الحرص على إبقاء مقر اقامتها سراً.

الفصل الحادى عشر

ويجب أن نذكر أن الوصف الذى اتيت عليه «للسريعة» ليس الوصف الذى كان من الممكن أن يقوله ذو السن الكبيرة وهو ذاتى الأخرى فى أحلامى وسلفى قبل التاريخ ولكنى عن طريق أحلامى أنظر أنا الرجل الحديث من خلال عينى السن الكبيرة وأرى.

وهكذا شأنى وأنا أسرد أحداث ذلك الوقت المعن فى القدم. وهناك ازدواج فى انطباعاتى بصورة مربكة جداً لقرائى ولهذا سأكتفى بالوقوف هنا وهناك لتوضيح هذا الازدواج وهذا الخلط المحير فى الشخصية. انه أنا الرجل العصرى الذى يتذكر عبر القرون ويزن ويحلل العواطف والدوافع عند ذى السن الكبيرة ذاتى الأخرى ولم يكن يشغله أن يزن وأن يحلل. كان البساطة نفسها يحيا الأحداث فحسب دون أن يتأمل لماذا يحياها على النحو الخاص به ذلك النحو الذى غالباً ما خرج على الانتظام.

ولما كبرت ذاتى الحقيقية ازددت أكثر فأكثر فى مادة أحلامى وقد يحلم المرء وبينما هو فى وسط أحلامه يدرك أنه يحلم وإن كان الحلم سيئاً أدخل على نفسه الشعور بالراحة بفكرة أنه مجرد حلم. وهذه تجربة عامة مشتركة بيننا. وهكذا غالباً ما أدخل أنا الرجل الحديث فى حلمه وفيما يعقب ذلك من ازدواج غريب فى الشخصية فأصبح ممثلاً ومتفرجاً فى وقت واحد. وغالباً ما أضطرب أنا الرجل الحديث وأنزعج لغبائى أنا البدائى ذلك الغباء الهائل الشامل وحماقتى ولا منطقيتى وفضولى.

وهناك شيء آخر قبل أن أترك هذا التناقض. هل حلمت قط أنك كنت تحلم؟

فالكلاب تحلم والجياد تحلم وجميع الحيوانات تحلم وفى أيام السن الكبيرة كان أنصاف البشر يحلمون فإذا كانت الأحلام سيئة عووا أثناء نومهم والآن أنا الرجل الحديث رقدت رقدة السن الكبيرة وحلمت أحلامه.

وأعرف أن هذا يفوق طاقة العقل على الاستيعاب ولكنى أعرف أنى فعلت هذا الشيء ودعنى أقول لك أن أحلام السن الكبيرة عن الطيران والزحف كانت حيوية عنده حيوية حلم السقوط فى الفضاء بالنسبة لك.

لأن السن الكبيرة كانت له ذات أخرى وعندما ينام ترجع ذاته الأخرى إلى الماضى إلى ماضى الزواحف المجنحة وصدام وهجوم التين وإلى ما يسبق ذلك من ماضى الحيوانات الثديية الدقيقة التى تشبه الحيوانات القارضة وماهو أبعد من ذلك.

وهو وحل شاطيء البحر البدائى ولا أستطيع ولا أجرؤ على أن أقول أكثر من هذا فالأمر كله بالغ الغموض والتعقيد بصورة مخيفة وكل ما أستطيع الأشارة إليه من هذا المنظور الفسيح الرهيب والذى من خلاله تطلعت بصورة غامضة الى تتابع الحياة لا علوا من القرد إلى الإنسان بل علوا من الدودة.

والآن أعود الى قصتى ولم أعرف أنا السن الكبيرة السريعة كمخلوقة ذات تناسق وجهى وجسدى رقيق ولها عينان طويلتا الأهداب وتحتهما أنف وخياشيم مفتوحة إلى أسفل مما يجعلها أقرب إلى الجمال بل عرفتها فقط على أنها الانثى ذات العينين العذبتين التى تصدر أصواتاً خافتة ولم تقاتل وكنت أحب اللعب معها دون أن أدرى سبب ذلك وأحب البحث عن الطعام وأنا فى صحبتها والبحث عن أعشاش الطير معها ولابد من أن أعترف بأنها علمتنى أشياء عن تسلق الشجر وكانت غاية فى الحكمة والقوة ولم تكن تعطل حركاتها ثياب تتعلق بجسدها.

وفى هذا الوقت حدث قصور من جانب مسترخى الأذن إذ تعود التجول بعيداً فى اتجاه الشجرة التى تعيش عليها أمى بعد أن شعر بميل إلى أختى الشريرة وأصبح الثرثار يتسامح معه كان هناك عدة شباب هم ذرية الزوجين المقيمين بجواره فكان مسترخى الأذن يلعب مع هؤلاء الصغار.

ولم أستطع إقناع السريعة بالانضمام إليهم. وكلما زرتهم تخلفت هى ورائى

واختفت وأذكر أنى بذلت ذات مرة جهداً قوياً لاقناعها ولكنها ألقت إلى الوراء نظرات قلق وتقهقرت ثم نادتنى من فوق شجرة. وهكذا لم أعد أصحب مسترخى الأذن عند زيارته اصدقاءه الجدد وكنت أنا والسريعة رفيقين طيبين ولكنى لم أستطع معرفة مأواها فى الشجرة بالرغم من كل ما بذلت من محاولات. ومما لاشك فيه انه كان من الممكن أن أتزوج منها لو لم يحدث هذا الشيء لأننا كنا نتبادل الميل كلانا إلى الآخر ولكن الشيء حدث.

ففى ذات صباح لم تظهر السريعة وكنت أنا ومسترخى الأذن عند مصب البركة نلعب على الكتل الخشبية وما كدنا نخرج فوق الماء حتى فوجئنا بصوت زئير الغضب كان زئير العين الحمراء وهو قابع على حافة كتلة جذوع الأشجار ينفث كراهيته من عينيه وخفنا خوفاً شديداً لانه لم يكن لدينا هنا كهف ضيق المدخل يمكن أن نأوى إليه. ولكنا وجدنا الأمان المؤقت فى العشرين قدماً من الماء التى تفصل بيننا وبينه وجمعنا أطراف شجاعتنا. وانتصب العين الحمراء واقفاً وأخذ يدق صدره المشعر بقبضة يده. وكانت الكتلتان الخشبيتان اللتان نرتقيهما جنباً إلى جنب فجلسنا عليهما وأخذنا نضحك منه وكان ضحكنا فى أول الأمر فاتراً ممزوجا بالخوف ولكن عندما اقتنعنا بعجزه انطلقنا نضحك مقهقهين. وهاج وثار فينا وعض على نواجذه فى غضب يائس وأخذنا نحن فى أمننا المتخيل نسخر منه. كان شأن قبيلتنا قصر النظر.

وكف العين الحمراء فجأة عن دق صدره وعن عض نواجذه وجرى إلى الشاطيء.

وفجأة توقف مرحنا وحل محله الرعب. فلم يكن العين الحمراء بالذى ينسى انتقامه بمثل هذه السهولة. وانتظرنا فى خوف ما سيحدث ونحن نرتعب. ولم يخطر ببالنا أن نجدف بعيداً. وعاد إلى الكتلة الخشبية بقفزات واسعة وإحدى يديه قابضة على حصاة كبيرة مستديرة غسلها الماء وقد أسعدنى أنه لم يستطع أن يجد حصاة أكبر حجماً مما يزن رطلين أو ثلاثة أرطال إذ لم تكن على بعد يزيد عن عشرة أقدام منه وكان من الممكن بالتأكيد أن يقتلنا.

ولم يكن الخطر المحدق بنا هينا، ومرت بنا حصاة وهى مندفعة كالرصاصة

فاقبلنا أنا ومسترخى الأذن على التجديف بهوس. وجاءت حصاة أخرى وصرخ مسترخى الأذن من الألم المفاجىء. إذ كانت الحصاة قد اصابت مابين كتفيه ثم أصابتنى حصاة أخرى وصحت ولم ينقذنا سوى نفاد ذخيرة العين الحمراء واندفع مرة أخرى إلى حوض الحصى طلباً للمزيد بينما مضينا أنا ومسترخى الأذن نجدف بعيداً.

وابتعدنا عن مرماه تدريجياً وأن كان العين الحمراء قد استمر فى القيام برحلات من أجل المزيد من الذخيرة واستمر الحصى يئز حولنا وكان فى منتصف البركة تيار خفيف ولم نلاحظ أنه يدفعنا إلى النهر بسبب ما كنا فيه من انفعال وجدفنا وظل العين الحمراء محافظاً على قربه منا ما استطاع بمتابعتنا على طول الشاطىء ثم اكتشف حجارة أكبر. وزادت هذه الذخيرة من طول مداه. وسقطت شظية تزن خمسة أرطال كاملة على الكتلة الخشبية بجوارى بلغ من تأثيرها أنها أثارت عدة شظايا من الخشب فأصابت ساقى كالأبر. ولو أصابتنى تلك الشظية لقتلتنى، وعندئذ أدركنا تيار النهر. وكنا نجدف بشدة لدرجة أن العين الحمراء كان أول من لاحظ وجود التيار وكان أول إنذار لنا صيحة انتصاره.

وكلما لمس طرف التيار ماء البركة حدثت مجموعة من دوامات ووقعت الكتلتان الخشبيتان فى إحدى هذه الدوامات وأخذتا تدوران حول نفسيهما. وكففنا عن التجديف وكرسنا كل طاقاتنا لابقاء كتلتى الخشب متلاصقتين معاً. وظل العين الحمراء يمطرنا بقذائفه وشظايا الحجارة تتساقط حولنا وتنثر الماء علينا وتهدد حياتنا بالخطر. وأخذ يتفرس فينا فى نفس الوقت بوحشية وغير النهر اتجاهه تغيراً شديداً عند مدخل البركة ومضى التيار الرئيسى للنهر كله إلى الشاطىء الأخر فطفونا بسرعة ناحية ذلك الشاطىء ونحن ماضون عبر الغدير فى نفس الوقت وأبعدنا هذا بسرعة عن متناول العين الحمراء ورأيناه أخر ما رأيناه بعيداً جداً على بقعة من الأرض يقفز علواً وسفلاً يغنى أغنية النصر.

ولم نفعل أنا ومسترخى الأذن أكثر من إبقاء الكتلتين جنباً إلى جنب مستسلمين لقدرنا وظللنا مستسلمين حتى انتبهنا إلى أننا نطفو على طول الشاطىء الشمالى دون أن نبتعد أكثر من مائة قدم وبدأنا نجدف نحوه. وهنا

اتجهت القوة الأساسية للتيار إلى الوراء نحو الشاطىء الجنوبى وأسفر تجديفنا عن عبورنا التيار حيث كان فى أقصى سرعته وأضيق مساحته ونجونا منه وأصبحنا فى دوامة خفيفة قبل أن ندرك ما حدث لنا.

وطفت كتلتانا الخشبيتان ببطء وأخيراً جنحنا إلى الشاطىء برفق وزحفنا أنا ومسترخى الأذن إلى الشاطىء وطفت الكتلتان خارجتين عن الدوامة ومضتا بعيداً فى مجرى الغدير ونظر كلانا إلى الآخر ولكننا لم نضحك فقد كنا فى أرض غريبة ولم يخطر ببالنا أننا نستطيع العودة إلى أرضنا على نفس النحو الذى جئنا به.

وتعلمنا كيف نعبر نهراً ولم نكن نعرف ذلك من قبل وهو أمر لم يفعله غيرنا من أهل القبيلة. وكنا أول من وضع قدمه من أهل القبيلة على الشاطىء الشمالى للنهر. ومما لاشك فيه أنهم فعلوا ذلك فيما بعد ولكن هجرة أهل النار وما تلاها من هجرة الذين بقوا من القبيلة عطل تطورنا عدة قرون.

وليس هناك من سبيل فى الحقيقة لمعرفة كم كانت نتيجة هجرة أهل النار مفجعة وأميل شخصياً إلى الاعتقاد بأنها قضت على القبيلة وأننا كفرع من الحياة الدنيا التى هى براعم الإنسانية هلكنا بسبب أمواج الشاطىء الصخرى الهادرة حيث يصب النهر فى البحر. وفى مثل هذا الحدث طبعاً لابد أن أكون قد تعبت ولكنى أسبق قصتى. وسيتم مثل هذا الحساب قبل أن ينتهى أمرى.

الفصل الثانى عشر

وليست لدى فكرة عن مدى تحملنا أنا ومسترخى الأذن الأرض شمال النهر. كنا كملاحين غرقت سفينتهم وأصبحوا فى جزيرة مجهولة فيما يتعلق باحتمال عودتنا إلى وطننا. أدرنا ظهرينا إلى النهر وظللنا اسابيع وأشهر ونحن نغامر فى البيداء المهجورة ومن العسير أن أذكر تفاصيل رحيلنا كما أنه من المستحيل أن أذكره يوماً يوماً فأغلب ذكرياته ضبابية وغير واضحة وإن كانت لدى ذكريات للأشياء التى حدثت هنا وهناك.

وأذكر فعلاً بصفة خاصة ذلك الجوع الذى تحملناه ونحن على الجبال بين البحيرة الطويلة والبحيرة النائية والعجل الذى أدركناه نائماً فى الأجمة كما أذكر أهل الشجر الذين يسكنون فى الغابة بين البحيرة الطويلة والجبال فهم الذين طاردونا حتى الجبال واضطررنا إلى الرحيل حتى البحيرة النائية.

وأول ما فعلناه عند مبارحتنا النهر أننا مضينا غرباً حتى بلغنا غديراً صغيراً يشق طريقه فى أرض مستنقعات. وهنا اتجهنا شمالاً ونحن ندور حول المستنقعات ووصلنا بعد عدة أيام إلى ما أسميته البحيرة الطويلة. وقضينا بعض الوقت حول طرفها الأعلى حيث وجدنا كميات وفيرة من الغذاء وقد حدث ذات يوم ونحن فى الغابة أن رأينا واحداً من أهل الشجر. هذه المخلوقات قردة متوحشة ولا أكثر من ذلك. ومع ذلك فلم تكن تختلف عنا كثيراً. صحيح انها أغزر شعراً وسيقانها أكثر تعقيداً واعوجاجاً وأعينها أصغر قليلاً وأعناقها أغلظ قليلاً وأقصر وخياشيمها ثقوب فى سطوح غائرة إلا أنها لم يكن لها شعر فى وجوهها أو فى راحة أيديها أو فى كعوب أقدامها وكانت تصدر أصواتاً تشبه أصواتنا وبصفة عامة فأن أهل الشجر والقبيلة لم يكونوا جد مختلطين.

كان عجوزاً صغيراً ضامراً مغضن الوجه كالح العينين مترنحاً. وكان فريسة شرعية وعالمنا خال من أى تعاطف بين الأنواع. والرجل لم يكن من نوعنا بل هو رجل شجر. وطاعن فى السن، وكان جالساً عند قاعدة شجرة - وهى شجرته بداهة لأننا رأينا عشه البالى بين الأغصان وهو الذى ينام فيه ليله.

وأشرت لمسترخى الأذن إليه واندفعنا نحوه، وبدأ يتسلق الشجرة ولكنه كان غاية فى البطء وأمسكته بساقه وجذبته إلى تحت، وعندئذ ضحكنا وأخذنا نقرصه ونجذب شعره ونقرص أذنيه وندس أطراف أغصان الشجر فى جنبيه ونحن نضحك أثناء ذلك وقد فاضت أعيننا بالدموع، وكان غضبه غير المجدى سخيفا ومنظره مثيراً للضحك وهو يحاول إذكاء النار فى رماد شبابه وبعث القوة الميتة التى راحت عبر السنين بما يرتسم على ملامحه من حزن بدلا من ملامح القوة الوحشية التى يعنيها وأخذ يقرض على أسنانه البالية ويضرب صدره الهزيل بقبضتيه الواهنتين.

وكذلك أخذ يسعل ويلهث وتتقطع أنفاسه ويبصق على الأرض بغزارة وكلما حاول تسلق الشجرة جذبناه ثانية نحونا وأخيرا استسلم لضعفه، وجلس وبكى وجلسنا أنا ومسترخى الأذن معه وقد أحاط كلانا الآخر بذراعه وضحكنا من مأساته.

واستبدل البكاء بالنهنهة. والنهنهة بالولولة وأخيرا استطاع أن يصرخ وأخافنا صراخه ولكن كلما حاولنا وقف صراخه زاد ارتفاع صوته ومن مكان غير بعيد فى الغابة من حولنا نداءات «هو هو! هو هو!».

وعندئذ بدأت المطاردة وبدا أنها لن تنتهى، وجروا وراءنا بين الأشجار وكانوا جميعا كل أفراد القبيلة وكادوا يلحقونه بنا واضطررنا إلى النزول إلى الأرض وهنا كان لنا السبق لأنهم كانوا حقا أهل الشجر متفوقين علينا فى تسلقه أما نحن فنتفوق عليهم فى الجرى على الأرض، ومضينا نحو الشمال والقبيلة تعوى فى أعقابنا، وكنا نسبقهم فى الأرض العراء أما فى الغابة فهم يستطيعون اللحاق بنا وقد حدث أكثر من مرة أن أصبحوا قاب قوسين أو أدنى منا وبينما كانت المطاردة مستمرة بيننا أدركنا أننا لم نكن من نوعهم وأن الروابط بيننا وبينهم لايمكن أن يشوبها التعاطف.

وطاردونا ساعات وبدت الغابة بلا نهاية وحاذينا الغدران واستطعنا ذلك ولكنها كانت تنتهى دائما إلى غابة أكثر كثافة، وخطر لنا أحيانا أننا نجونا فجلسنا للراحة ولكن قبل أن نستعيد قدرتنا على التنفس سمعنا النداء الكريه «هو هو! هو هو!» والنداء الرهيب «جوبيك! جوبيك!» وينتهى النداء الأخير أحيانا بمقطع وحشى ها - ها - ها - ها - ها!!!.

وعلى هذا النحو ظل أهل الشجرة يطاردوننا عبر الغابة وأخيراً وقبل أن ينتصف النهار أخذت المنحدرات ترتفع أكثر فأكثر والأشجار تصبح أصغر فأصغر حتى خرجنا إلى جانب الجبل الذي يغطيه العشب وهنا استطعنا كسب الوقت فكف أهل الشجر عن مطاردتنا وعادوا إلى غابتهم.

وكانت الجبال كئيبة ماحلة وحاولنا بعد ظهر ذلك اليوم ثلاث مرات أن نعود إلى الغابة ولكن أهل الشجر كانوا ينتظروننا ويردوننا على أعقابنا ونمنا أنا ومسترخى الأذن تلك الليلة فى شجرة قزمة لاتزيد عن أن تكون شجيرة لاتكفل أمننا إذ كنا فيها فريسة سهلة لأى حيوان متوحش يمر بها.

وفى الصباح واجهنا فى الجبال نتيجة احترامنا الجديد لأهل الشجر، إذ لم تكن لدينا خطة محددة ولاحتى مجرد فكرة وهو أمر أنا واثق منه، كان الخطر الذى هربنا منه يسوقنا قدما فحسب، وذكرياتى عن تيهنا فى الجبال يغلفها الضباب، وظللنا فى ذلك الإقليم الكئيب عدة أيام وعانينا الكثير خلال تلك الأيام وخاصة من الخوف فقد كان كل شىء جديدا وغريبا كما عانينا البرد ثم الجوع بعد ذلك.

كانت أرضنا مقفرة كلها صخور وغدران يعلوها الزبد والشلالات المجلجلة وارتقينا الوديان الجبارة والممرات التى بين الجبال وهبطناها ودائما أمامنا من كل ناحية سلاسل الجبال بعضها آخذ برقاب بعض جبال لا نهاية لها وفى ذات ليلة باردة قبعنا على قمة صخرية دقيقة وكأنها شجرة.

وعندئذ لمحنا من هناك فى ظهيرة يوم حار وقد أدار الجوع رؤوسنا لمحنا بحيرة بعيدة وراء السلاسل الجبلية المتناقصة نحو الشمال وقد انعكست عليها أشعة الشمس وحولها أرض معشبة مستوية فسيحة بينما ناحية الشرق الخط الداكن اللون وهو خط الغابة الواسعة الامتداد.

ومشينا يومين حتى بلغنا البحيرة وكان الجوع قد أنهك قوانا ولكنا وجدنا على شاطىء البحيرة عجلا نائما بعض الشىء نائما فى راحة وسط دغل، وقد أتعبنا كثيرا لأننا لم نعرف وسيلة أخرى لقتله سوى أيدينا، وبعد أن أكلنا منه كفايتنا حملنا بقية اللحم إلى الغابة الشرقية وأخفيناه فى شجرة، ولم نعد إلى تلك الشجرة أبدا لأن شاطيء الغدير الذى كان يستمد ماءه من البحيرة النائية كان حافلا بسمك السلمون الذى جاء من البحر ليضع بيضه هناك.

وامتدت الأرض المعشبة غربى البحيرة وفيها الكثير من ثيران وماشية برية كما كانت فيها عدة قطعان من الكلاب الضارية ولما لم تكن هناك أشجار فإنها لم يكن لتكفل لنا الأمان، وعندئذ ولسبب لا أعرفه تركنا الغدير فورا فجاة ومضينا نحو الشرق ثم نحو الجنوب الشرقى وسرنا خلال غابة كبيرة ولن أثير ملك برحلتنا واكتفى بالإشارة إليها لأبين لك كيف وصلنا إلى بلاد أهل النار.

وخرجنا إلى النهر ولكننا لم نعرف أنه هو نهرنا فقد انقضى وقت طويل على تيهنا إلى حد أننا أصبحنا نتقبل حالة التيه على أنها أمر مألوف، وعندما أسترجع الذكرى أرى بوضوح كيف أن حياتنا ومصيرنا كانت تشكلها مجرد المصادفات لم نعرف أن النهر نهرنا – فلم تكن لنا وسيلة لمعرفة ذلك ولم نعيره قط – ولولا المصادفة لما كان من المحتمل أن نعود إلى القبيلة وأنا الرجل الحديث – الذى سيولد بعد ألف قرن ما كنت لأولد.

ومع ذلك فإننا أنا ومسترخى الأذن كنا نريد العودة كثيرا فقد أحسسنا حنينا إلى الوطن وكذلك اللهفة إلى نوعنا وأرضنا وغالبا ما تعاودنى ذكرياتى عن السريعة تلك الأنثى الصغيرة التى تصدر أصواتا خافتة تلك التى يجمل أن يكون المرء معها والتى تعيش وحدها دون أن يعرف أحد أين تعيش وذكرياتى عنها مصحوبة بإحساس الجوع وهو إحساس أحسه عندما لا أكون جائعا وعندما أنتهى من تناول الطعام.

ولكن لنعد إلى النهر، كان الطعام وفيرا وخاصة التوت والنباتات التى تختزن – العصير فى جذورها وأخذنا نلعب على شاطيء النهر وبقينا أياما وعندئذ خطرت لمسترخى الأذن فكرة وكانت عملية ورود الفكرة مرئية وأصبح التعبير الذى تنطق به عيناه تعبيرا عن الشكوى والشجار، وانزعج كثيرا ثم غامت عيناه كما لو كان

قد فقد سيطرته على الفكرة غير الكاملة ثم أعقب ذلك التعبير عن الشكوى والشجار أن ظلت الفكرة متشبثة بالبقاء فقبض عليها من جديد ونظر إلى ثم إلى النهر ثم إلى الشاطيء البعيد وحاول أن يتكلم ولكن لم تكن لديه الأصوات التى يعبر بها عن الفكرة وجاءت النتيجة همهمة وتمتمة جعلتنى أضحك وأغضبه هذا وأمسك بى فجأة وألقانى على ظهرى وتقاتلنا طبعا وفى النهاية طاردته فوق شجرة حيث أمسك غصنا طويلا أخذ يدفعنى به عنه كلما حاولت الوصول إليه.

وذهبت الفكرة بعد أن تضاءلت تدريجيا ولم أعرفها أما هو فقد نسيها ولكنها استيقظت عنده ثانية عندما استيقظ فى الصباح التالى، ربما كانت غريزة المأوى وهى تؤكد نفسها فجعلت الفكرة تتشبث بالبقاء وعلى كل حال كانت موجودة وأوضح من ذى قبل وقادنى حتى الماء حيث جاء المد بكتلة من الخشب على الشاطىء وظننته يريد أن يلعب كما لعبنا من قبل عند مصب البركة ولم أعبر عن رأيى وأنا أرقبه يقيد كتلة خشبية بأخرى بها بعد أن أتى بها من مكان بعيد على الشاطىء.

وبعد أن أصبحنا على الكتلتين جنبا إلى جنب ممسكين إياهما بأيدينا وجدفنا حتى أصبحنا داخل التيار علمت نياته وتوقف وأشار إلى الشاطيء البعيد واستأنف التجديف وهو يتمتم فى الوقت نفسه صيحات عالية ومشجعة، وفهمت وأخذنا نجدف، بحماس ووقعنا فى قبضة التيار السريع فقذف بنا ناحية الشاطيء الجنوبى ولكن قبل أن نستطيع الهبوط قذف بنا مرة أخرى ناحية الشاطىء الشمالى.

وهنا ثار الشقاق، رأيت الشاطىء الشمالى شديد القرب فبدأت أجدف نحوه وحاول مسترخى الأذن أن يجدف ناحية الشاطيء الجنوبى، ودارت الكتلتان الخشبيتان فى دائرة ولم نصل إلى أى مكان وظلت الغابة تبتعد عنا إلى الوراء ونحن طافيان على سطح الغدير ولم نستطع المقاومة، وكان خيرا لنا عدم إخلاء قبضة أيدينا وأرجلنا على الكتلتين الخشبيتين مما يبقيهما معا، ولكنا ثرثرنا وتبادلنا السباب بألسنتنا حتى قذف بنا التيار نحو الشاطيء الجنوبى ثانية، كان هذا هو أقرب هدف لنا الآن وأخذنا نجدف نحوه ونحن متحابان وهبطنا عليه مع المد وتسلقنا الأشجار مباشرة لنتعرف على المكان الذى نحن فيه.

الفصل الثالث عشر

ولم نكتشف أهل النار إلا ليلة أول يوم لنا على الشاطىء الجنوبى من النهر ولابد أنهم جماعة من الصيادين الجائلين قد عسكروا بالقرب من الشجرة التى اخترت أنا ومسترخى الأذن أن نقضى عليها ليلتنا وأخافتنا أصوات أهل النار فى أول الأمر ولكن النار اجتذبتنا فيما بعد حين خيم الظلام وزحفنا فى حذر وانتقلت من شجرة إلى أخرى حتى أصبحنا نرى المنظر جيدا.

ففى مكان مكشوف بين الأشجار وقريب من النهر كانت النار مشتعلة وحولها ستة من أهل النار، وأمسكنى مسترخى الأذن على حين فجأة وأحسست أنه كان يرتعد وأمعنت النظر فرأيت الصياد العجوز الصغير الضامر الذى كان قد أصاب ذا السن المكسورة وأوقعه من فوق الشجرة منذ عدة أعوام، وعندما نهض ومشى يلقى وقودا جديدا على النار رأيت أنه كان يعرج بساقه الكسيحة، وكائنا ما كانت إصابته فإنها كانت إصابة دائمة وبدا لى أكثر جفافا وضمورا عنه قبلا وقد شاب شعر وجهه كثيرا.

ولاحظت أن الصيادين الآخرين شبان وعلى مقربة منهم على الأرض قسيهم وسهامهم وعرفت هذه الأسلحة ويرتدى أهل النار جلود الحيوانات حول أوساطهم وعلى أكتافهم أما أذرعتهم وسيقانهم فهى عارية ولم ينتعلوا شيئا فى أقدامهم، وكما قلت من قبل لم يكونوا مشعرين مثلنا نحن القوم، ولم تكن لهم رؤوس ضخمة والفارق بينهم وبين القبيلة فارق صغير فى درجة انحدار الجبينين فوق العينين إلى الوراء.

وكانوا أقل انحناء منا وأقل توثبا فى حركاتهم منا.. وبدت سلاسلهم الفقرية

وأفخاذهم وركبهم أشد صلابة منا، وليست أذرعهم شديدة الطول مثل أذرعتنا ولم ألاحظ قط أنهم يعملون على حفظ توازنهم مثلما نفعل أثناء المشى بلمس الأرض بالأيدى من الجانبين كما أن عضلاتهم أكثر استدارة واتساقا من عضلاتنا ووجوههم أكثر وسامة من وجوهنا وفتحات أنوفهم إلى أسفل كما أن قصبات أنوفهم أكثر نموا وليست مربعة أو مهشمة كقصبات أنوفنا أما شفاههم فهى أقل استرخاء وتدليا ومن شفاهنا وليست أنيابهم كبيرة كأنياب الحيوان وعلى كل حال فإنهم رقيقوا الشفاه مثلنا تماما ولم يزد وزنهم عن وزننا واختلافهم عنا فى جملة أقل من اختلافنا عن أهل الشجر ومن المؤكد وجود علاقة بين جميع الأنواع الثلاثة بل أن هذه العلاقة ليست بعيدة.

وكانت النار التى جلسوا حولها جذابة بصفة خاصة وجلسنا أنا ومسترخى الأذن ـ ساعات ونحن نرقب اللهب والدخان ومن أكثر المناظر سحرا منظرهم حين يلقون وقودا جديدا على النار فينطلق الشرر إلى أعلى وأردت أن أقترب وأن أنظر إلى النار ولكن لم يكن هناك من سبيل كنا قابعين فى ملتقى فروع شجرة على حافة المكان المكشوف ولم نجرؤ على المخاطرة بكشف أمرنا.

وتربع رجال النار حول النار وناموا وقد احتووا رؤوسهم إلى الأمام فوق ركبهم، ولم يكن نومهم عميقا بل كانت آذانهم تختلج أثناء نومهم كما كانوا مضطربين وبين الحين والحين ينهض أحدهم ويلقى مزيدا من الخشب فوق النار، وحول دائرة الضوء فى الغابة وفيما وراء هذه الدائرة من ظلام كانت الحيوانات المفترسة تتجول وقد عرفنا أنا ومسترخى الأذن ذلك من أصوات هذه الحيوانات كانت كلابا برية وضبعا، ثم جاء صوت عواء كبير وزمجرة وأيقظ هذا الصوت على الفور كل رجال النار النائمين.

ووقف أسد ولبؤة تحت شجرتنا وحدقا النظر بأعين ترمش وشعر منفوش، ولعق الأسد أضلعه وأصابته حالة عصبية بسبب لهفته كما لو كان يريد المضى قدما ويفترس أحدا ولكن اللبؤة كانت أكثر حذرا، وكانت هى التى اكتشفتنا ووقف الاثنان وتطلعا إلينا فى صمت وخياشيمهما تختلج وتتشمم الرائحة، ثم زمجرا ونظرا إلى النار مرة أخرى ثم استدارا ـ عائدين إلى داخل الغابة.

وبقينا أنا ومسترخى الأذن وراقبنا وقتا أطول، وسمعنا من وقت لآخر صدام أجسام ثقيلة فى الأدغال وبين النباتات القصيرة، ورأينا فى الظلام فى الناحية الأخرى من وراء الدائرة أعينا تلمع فى ضوء النار، وسمعت زئير أسد قادما من بعيد ومن بعيد جدا سمعنا صياح حيوان وقع بين أنياب حيوان آخر مفترس وهو يتخبط فى موردة ماء وينثر حوله رشاش الماء، وجاء من النهر أيضا خوار الخرتيت وهو خوار ضخم.

وفى الصباح وبعد أن نلنا نصيبنا من النوم زحفنا عائدين إلى النار وكانت تحترق بغير لهب وكان أهل النار قد رحلوا ودرنا حول النار ونحن داخل الغابة لنطمئن إلى عدم وجود أحد ثم جرينا نحو النار، وكنت أريد أن أرى ما هى والتقطت بأصبعى الإبهام والسبابة قطعة من الفحم المتوهج ولما صرخت ألما وخوفا وأنا أدعها تسقط من يدى أسرع مسترخى الأذن إلى الأشجار وأخافنى فراره فجريت وراءه.

وعدنا فى المرة التالية أكثر حذرا وتحاشينا الفحم المتوهج وأخذنا نقلد أهل النار فتربعنا بالقرب من النار وأحنينا رأسينا فوق ركبتينا وتظاهرنا بالنوم، ثم قلدنا كلامهم وأخذ كلانا يكلم الآخر على طريقتهم، ويكثر من الثرثرة وتذكرت رؤيتى الصياد العجوز النحيل وهو يقلب النار بعصا وقلبت النار بعصا ورفعت كتلا من الفحم المتوهج وسحبا من الرماد الأبيض وكانت هذه لعبة عظيمة وسرعان ما غلفنا الرماد الأبيض بغلالة منه.

ولم يكن هناك مفر من أن نقلد أهل النار فى تجديد النار، وحاولنا ذلك فى أول الأمر بقطع صغيرة من الخشب ونجحنا فى ذلك، والتهب الخشب وطقطق ورقصنا وثرثرنا ابتهاجا ثم أخذنا نلقي قطعا من الخشب أكبر من السابقة وأخذنا نضيف إليها أكثر فأكثر حتى أصبحت لدينا نار قوية وأخذنا نندفع إلى الوراء وإلى الأمام ونجر فروع الأشجار الميتة من داخل الغابة، وارتفع اللهب عاليا وازداد ارتفاعا أكثر فأكثر وارتفعت أعمدة الدخان إلى مايفوق ارتفاع الأشجار وأصبح هناك شرر وطقطقة وزئير على نحو هائل، وكان هذا أضخم عمل قمنا به بأيدينا وكنا فخورين به إذ رأينا ونحن نرقص كقزمين أبيضين أمام اللهب أننا أصبحنا نحن الآخرين من أهل النار.

ولحقت النار بالعشب الجاف والنباتات الصغيرة ولكننا لم نلاحظ ذلك وعلى حين فجأة اشتعلت شجرة كبيرة على حافة الأرض الفضاء وغطاها اللهب ونظرنا إليها فى فزع، ودفعتنا الحرارة الشديدة المنبعثة منها إلى الابتعاد عنها ثم لحقت النار بشجرة أخرى فثالثة ثم بست أشجار، وخفنا فقد انطلق المارد الجبار وقبعنا على الأرض فى خوف والنار تأكل دائرة الأشجار المحيطة بالأرض الفضاء وتحاصرنا، وظهرت فى عينى مسترخى الأذن النظرة الشاكية، وعرفت أن هذه النظرة لابد أن تكون قد ارتسمت فى عينى، واحتضن كلانا الآخر وأحاطه بذراعيه حتى بدأت الحرارة تصل إلينا وملأت خياشيمنا رائحة الشعر المحترق، وعندئذ اندفعنا خارجين من ذلك الجحيم وهربنا غربا عبر الغابة ونحن ننظر إلى الوراء ونضحك ونجرى.

حتى إذا انتصف النهار بلغنا عنقا من الأرض كان كما تبينا فيما بعد نتيجة لانحناءه كبيرة من النهر كادت تتم دائرة وعبر عنق الأرض اجتمعت عدة تلال منخفضة تغطى ـ الغابات بعضها وارتقينا هذه التلال ونظرنا إلى الوراء نحو الغابة التى أصبحت بحراً من اللهب يكتسح طريقه شرقا أمام ريح قوية وتابعنا سيرنا غربا متتبعين شاطىء النهر وأصبحنا دون أن ندرى وسط موطن أهل النار.

وكان هذا الموطن موقعا استراتيجيا رائعا فهو شبه جزيرة يحميها انحناء النهر من ثلاث جهات ولم يكن الوصول إليها ميسورا إلا من جهة واحدة وهذه الجهة هى عنق شبه الجزيرة الضيق، وكانت مجموعة التلال المنخفضة فى هذه الناحية عائقا طبيعيا ولما كان أهل النار هنا فى عزلة تامة عن بقية العالم فلابد أن يكونوا قد عاشوا وازدهروا وقتا طويلا، بل أننى أرى فى الواقع أن ازدهارهم هذا هو السبب فى هجومهم الذى أنزل الكوارث الرهيبة بالقبيلة ولابد أن يكون عدد أهل النار قد زاد إلى درجة شددت ضغطهم على حدود موطنهم بصورة غير مريحة، وأخذوا فى التوسع وفى أثناء هذا التوسع طردوا القوم أمامهم واستقروا هم أنفسهم فى الكهوف واحتلوا الأرض التى كنا نحتلها.

وحلمنا أنا ومسترخى الأذن بكل هذا عندما وجدنا نفسينا فى معقل أهل النار ولم تكن لدينا سوى فكرة واحدة وهى الهرب، وإن لم نستطع الامتناع عن إرضاء

فضولنا بالنظر إلى القرية، ورأينا لأول مرة نساء وأطفال النار، وكان أغلب الأطفال عراة أما النساء فكن يرتدين جلود الحيوانات المفترسة.

وأهل النار مثلنا يعيشون فى كهوف، وكان المكان المكشوف أمام الكهوف منحدرا نحو النهر، وكان فى هذا المكان المكشوف عدة نيران صغيرة تحترق ولكنى لم أعرف إذا كان أهل النار يطهون طعامهم أم لا فإنى لم أرهم يطهون طعامهم كما أن مسترخى الأذن لم يرهم يفعلون ذلك، ومع ذلك فإنى أرى أنهم كانوا بالتأكيد يقومون بنوع ساذج من الطهو، وكانوا مثلنا يحملون الماء من النهر فى جرار وكان هناك كثير من الغدو والرواح وصيحات عالية من النساء والأطفال وكان الأطفال يلعبون ويمرحون تماما كما يفعل أطفال القبيلة وكانوا أكثر شبها بأطفال القبيلة من مشابهة الكبار من أهل النار للكبار من القبيلة.

ولم نتمهل أنا ومسترخى الأذن فقد رأينا بعض الفتيان يطلقون سهامهم من قسيهم وتسللنا داخلين الغابة الأشد كثافة واتخذنا سبيلنا إلى النهر وهناك وجدنا طوفا حقيقيا من صنع بعض أهل النار بداهة وكانت الساقان صغيرتين مستقيمتين وقد ـ ثبتت كلتاهما بالأخرى بجدائل قوية وقطع متعارضة من الخشب.

وفى هذه المرة خطرت الفكرة لكلينا فى وقت واحد وهى أن نحاول الهرب من أرض أهل النار وأية طريقة أجمل من عبور النهر على هذه الكتل؟ وارتقينا الطوف ودفعناه بعيدا عن الشاطىء، وعلى حين فجأة أمسك شىء ما الطوف ودفعه فى مجرى الغدير بعنف حتى ارتطم بالشاطىء، وكاد وقوف الطوف فجأة يلقى بنا فى الماء.. كان الطوف مقيدا بحبل من جذور الأشجار المعقدة بشجرة فككنا هذا القيد قبل أن ندفع الطرف مرة أخرى بعيدا عن الشاطىء.

وفى الوقت الذى أصبحنا فيه نجدف جيدا فى التيار كنا قد قطعنا شوطاً طويلاً فى الغدير حتى أصبحنا على مرأى من موطن أهل النار وكنا مشغولين بالتجديف وأعيننا متجهة إلى الشاطىء الآخر إلى حد لم يدعنا نعرف شيئا حتى أثارتنا صيحة آتية من الشاطىء ونظرنا وراءنا فرأينا الكثيرين من أهل النار ينظرون ويشيرون إلينا، وكان هناك غيرهم يزحفون خارجين من الكهوف، وجلسنا

وراقبنا ونسينا أمر التجديف، وثارت ـ ضجة كبرى على الشاطىء، وصوب بعض أهل النار قسيهم نحونا وسقطت بعض السهام بالقرب منا ولكن المسافة بيننا وبينهم كانت أكبر من أن تستطيع السهام قطعها.

وكان يوما عظيما لنا أنا ومسترخى الأذن ففى الشرق كان الحريق الذى أشعلناه يملأ نصف السماء بالدخان وهنا أصبحنا فى أمان وسط النهر الذى يحيط بمعقل أهل النار، وجلسنا وضحكنا منهم فى اندفاعنا جنوبا مرة وجنوبا بشرق مرة أخرى وشرقا مرة ثالثة بل وأحيانا شمالا بشرق ثم شرقا ثانية ثم جنوبا بشرق وجنوبا ثم ندور غربا فى منحنى مزدوج كبير حيث كان النهر ينعقد تقريبا فى عقدة.

وإذ أخذنا سبيلنا غربا وقد خلفنا وراءنا أهل النار رأينا منظرا مألوفا لأنظارنا كان ذلك منظر موردة الماء حيث تجولنا مرة أو مرتين لنرقب مجموعة الحيوانات وهى تنزل الموردة تشرب ومن وراء هذه الموردة رقعة الجزر ومن وراء هذه كهوف ومواطن القبيلة وأخذنا نجدف نحو الشاطىء الذى أخذ ينزلق بسرعة مارا بنا وأصبحنا أمام الموردة التى تستخدمها القبيلة دون أن ندرى، وهناك كانت النساء والأطفال من حاملى الماء يملأون جرارهم وإذ رأونا تدافعوا فى جنون صاعدين الدروب تاركين وراءهم صفا من الجرار التى سقطت منهم.

ونزلنا إلى الشاطىء ونسينا طبعا أن نقيد الطوق فطفا فوق النهر ماضيا نحو الجنوب، وزحفنا فى حذر عبر أحد الدروب، وكانت القبيلة قد اختفت كلها داخل كهوفها وإن كنا مستطيعين رؤية وجه ما يطل علينا هنا وهناك، ولم يكن هناك أثر للعين الحمراء، وقد عدنا إلى وطننا وفى تلك الليلة نمنا فى كهفنا الصغير فى قمة الجوف وذلك بعد أن طردنا اثنين من الصغار المشاكسين كانا قد استولينا عليه.

الفصل الرابع عشر

وجاءت الشهور ومضت، وكانت أحداث ومآسى المستقبل تنتظر دورها على المسرح ونحن نكسر البندق ونعيش . وحصول ذلك العام من البندق وفيرا . فكنا نملأ الجرار بندقا ونحملها الى أماكن الكسر . ونضع البندق فى حفر من الصخر ونمسك بأيدينا قطعا من الصخر ونكسر بها ونأكل القوى بعد كسر الغلاف .

وحيثما عدنا أنا ومسترخى الأذن من رحلة مغامرتنا الطويلة كان الوقت ظريفا وكان الشتاء الذى تلاه معتدلا وقد قمت خلاله برحلات كثيرة الى مايجاور شجرة موطنى القديمة وغالبا ماكنت أفحص كل الأرض الواقعة بين مستنقع التوت الأزرق ومصب بركة الماء حيث تعلمت أنا ومسترخى الاذن الملاحة ولكنى لم أعثر على أثر للسريعة . كانت قد اختفت وكنت أريدها مدفوعا إلى هذا بذلك الجوع الذى ذكرته من قبل هو يماثل الجوع البدنى ولو أنه غالبا مايفرض نفسه على ومعدتى ممتلئة ولكن راح بحثى كله عبثا .

ولم تكن الحيـاة فى الكهوف مملة على كل حال . ولابد من أن نأخذ العين الحمراء فى الاعتبار . وماكنا أنا ومسترخى الاذن نعرف لحظة راحة الا عندما يضمنا كهفنا الصغير . وبالرغم من قيامنا بتوسيع المدخل فإنه ظل ضيقا يتطلب منا عصر جسدينا حتى نستطيع المرور منه . وبالرغم من أننا دأبنا على توسيعه من وقت لآخر الا أنه لم يكن يسمح بمرور جسد العين الحمراء الجبار ولكنه لم يحاول اقتحام كهفنا مرة أخرى . بعد أن اتعظ وبقيت فى عنقه تلك الكتلة المتورمة تدل على الموقع الذى ضربته فيه بالحجر . ولم يذهب هذا الورم أبدا بل ظل بارزا بحيث يرى من بعيد . وغالبا ماكنت أبتهج كثيرا وأنا أرقب هذا البرهان على براعتى بل أحيانا كان منظر الورم يدفعنى الى الضحك حين أكون فى أمان .

وإن لم تنشأ القبيلة الاسراع إلى نجدتنا إذا أقدم العين الحمراء على تمزيقى أنا ومسترخى الاذن أربا أمام أعينهم الا أن القوم بالرغم من ذلك كانوا يعطفون علينا . وربما لم يكن ذلك عطفا بل كانت طريقتهم فى الإعراب عن كراهيتهم للعين الحمراء على أية حال فقد كانوا ينذروننا دائما باقترابه . ويسرعون بانذارنا دائما سواء فى الغابة أم فى موردة الماء أم فى المكان المكشوف أمام الكهوف . وهكذا كنا نستفيد من عدة أعين فى صراعنا مع العين الحمراء المرتد إلى الاصل .

وأوشك أن ينالنى ذات مرة .. وكان ذلك فى الصباح الباكر ولم يكن القوم قد استيقظوا بعد وكانت المفاجأة شديدة . وكنت بعيدا عن الطريق فوق الجرف الى كهفى فاندفعت إلى داخل الكهف المزدوج . ذلك الكهف الذى كان مسترخى الاذن قد زاغ منى فيه منذ أعوام طويلة وحيث انهزم سن السيف العجوز حين طارد اثنين من القوم . وفى الوقت الذى بلغت فيه نقطة التقاء الكهفين تبينت أن العين الحمراء لم يكن يتبعنى . وفى اللحظة التالية دخل الكهف من الخارج . وتسلل عائدا من الممر فخرج وهاجمنى من الناحية الأخرى ثانية . واكتفيت بأن كررت التسلل عبر الممر .

وأبقانى هناك نصف النهار حتى تخلى عن المطاردة . وبعد ذلك كلما اطمأننا أنا ومسترخى الاذن الى الوصول الى الكهف المزدوج لم نهرب صاعدين الجرف إلى كهفنا عندما يظهر العين الحمراء على المسرح . بل كل ما كنا نفعله هو مراقبته حتى نتأكد من أنه لم لن يقطع علينا طريق التقهقر .

وفى خلال هذا الشتاء قتل العين الحمراء أحدث زوجاته بالسب والضرب المتكرر ولقد وصفته بأنه مرتد ولكنه فى هذا أسوأ من المرتد لأن ذكور الحيوانات الدنيا لا تسىء معاملة رفيقاتها أو تقتلها وأرى أن العين الحمراء بالرغم من ميوله الارتدادية كان دلالة على مجىء الانسان لأن ذكور الجنس البشرى وحدهم هم الذين يقتلون رفيقاتهم.

وعمد العين الحمراء – كما هو منتظر منه – بعد القضاء على إحدى زوجاته فى البحث عن أخرى. وقرر أن يتزوج من المغنية وهى حفيدة عظم النخاع العجوز وابنة الامرد وكانت صغيرة لطيفة تنطلق فى الغناء على باب كهفها عند الغسق

وهى حديثة عهد بالزواج من ذى الساق المعوجة . وهو شخص هادىء لا يزعج أحدا ولايشاغب رفاقه . ولم يكن مقاتلا على أية حال كان صغير الحجم نحيف العود بطىء الحركة بسبب اعوجاج ساقيه شأنه ذلك شأننا جميعا .

ولم يرتكب العين الحمراء قط من قبل عملا أشد شناعة من هذا . فقد حدث فى آخر النهار حيث يسود الهدوء والتجمع فى المكان المكشوف قبل تسلقنا الجرف إلى كهوفنا حدث أن جرت المغنية على حين فجأة صاعدة الدرب من مورد الماء والعين الحمراء فى إثرها . جرت الى زوجها . وخاف ذو الساق المعوجة الصغيرة المسكين خوفا شديدا . ولكنه كان بطلا عرف أن الموت آت اليه ومع ذلك فلم يهرب بل وقف وأخذ يثرثر وينفش شعره ويكشف عن أسنانه .

وزأر العين الحمراء غضبا إذ يرى أن يجرؤ واحد من القوم أن يقاومه. وامتدت يده وأطبقت على عنق ذى الساق المعوجة الذى غاصت أسنانه فى ذراع العين الحمراء . ولكن عنقه انكسر فى اللحظة التالية وأخذ يتلوى ويتخبط على الأرض . وصرخت المغنية وتمتمت وأمسكها العين الحمراء بشعرها وجذبها نحو كهفه . وجرها بخشونة وهما يتسلقان الجرف وألقى بها داخل الكهف .

وغضبنا كل الغضب . غضبنا بدرجة جنونية صارخة . وأخذنا نضرب صدورنا وننفش شعرنا ونكشف عن أسناننا وتجمعنا فى هياجنا وأسسنا غريزة التجمع والرغبة فى جمع الصف كما لو كنا سنقوم بعمل موحد والحافز للتعاون . وقويت عندنا هذه الحاجة الى العمل الموحد ولكن لم يكن هناك من سبيل لإنجازه لأنه لم تكن هناك وسيلة للإعراب عنه . ولم نتجه للقضاء على العين الحمراء لأنه كانت تنقصنا مفردات اللغة وتفكيرنا غامض وأفكارنا بدون رموز فكرية هذه الرموز الفكرية التى اخترعت فيما بعد على مهل وبمشقة .

وحاولنا إصدار صوت يحمل الأفكار الغامضة التى تنقلت كالظلال خلال إدراكنا . وأخذ الأمرد فى الثرثرة بصوت عال وقد أعرب بضوضائه عن الغضب ، على العين الحمراء والرغبة فى إيذاء العين الحمراء . كان هذا هو مبلغ ماحققته ومبلغ مافهمناه . ولكنه عندما حاول التعبير عن الحافز التعاونى الذى ثار فى داخل نفسه أصبحت ضوضاؤه همهمة . وعندئذ أخذ ذو الوجه الكبير يثرثر وهو

يضرب صدره بيديه وقد وقف شعر جبينه وأخذنا ننضم الواحد بعد الآخر الى موكب الهياج حتى عظم النخاع العجوز أخذ يصرخ ويتمتم بصوته المشروخ وشفتيه الذابلتين . وأمسك أحدنا عصا وأخذ يدق بها على كتلة خشبية ولم تمض لحظة حتى كان قد أحدث إيقاعا معينا واستسلمت صيحاتنا واستنكارنا لهذا الإيقاع عن غير وعى منا وهدأت نفوسنا بفضل هذا الايقاع ونسينا هياجنا دون أن نحس ذلك وانخرطنا فى مجلس طرب .

وتعكس مجالس الطرب هذه صورة بارعة لعدم التتابع وعدم التسلسل عند القبيلة فها نحن جمع بيننا الهياج المشترك والدافع نحو التعاون ضللنا الطريق واتجهنا الى النسيان بفضل وجود ايقاع فخ . كنا اجتماعيين يألف بعضنا الآخر وكانت مجالس الطرب هذه بما فيها من غناء وضحك مشبعة لنا . وكان مجلس الطرب من بعض نواحيه دلالة على مجالس الانسان البدائى والجمعيات الوطنية الكبرى والمؤتمرات الدولية عند الانسان فيما بعد . أما نحن فى العالم القديم عند نشأته فكان ينقصنا الكلام وكلما جمع بيننا شىء أصبحنا صورة سابقة لبابل يصدر عنها ايقاع بالاجماع يتضمن ضروريات الفن الذى سيظهر فيما بعد . كان ذلك إرهاصا بالفن .

ولم يكن بين هذه الايقاعات التى ابتدعناها ما استمر طويلا بل سرعان ماكان الايقاع يضيع وتسيطر الجلبة الى أن نعثر على الإيقاع أو نبدأ إيقاعا جديدا . وأحيانا تولد ستة إيقاعات فى وقت واحد وكل إيقاع منها تؤيده جماعة تعمل بحماس شديد على إغراق الايقاعات الاخرى وتغليبه عليها .

وفى الفترات التى تنقضى بين إيقاع وآخر تسود الجلبة ومنها يثرثر كل واحد أو يقطع الثرثرة أو يصيح أو يصرخ أو يرقص وهو مستقل عن غيره وهو مركز حقيقى للكون منفصل بصفة مؤقتة عن أى تآلف مع مراكز الكون الأخرى التى تقفز وتصيح من حوله . وعندئذ يظهر الإيقاع وتصفيق الايدى والضرب بالعصا على كتلة خشبية والمثل الذى يضربه واحد بقفزة وترديده أو غناء واحد تفر وانتظام بدرجات مختلفة علوا وسفلا.. «أبانج .. أبانج.. أبانج أبانج..» يحتذيه القوم الذى كان كل منهم متمركزا فى نفسه لهذا الايقاع الواحد فى إثر الآخر

ويأخذ الجميع فى الرقص أوالغناء الجماعى . ومن أحب أغانينا الجماعية «ها – آه ها – آه ها آه ها آه ها» كما كانت هناك أغنية جماعية أخرى محبوبة عندنا وهى ايه – واه .. ايه – واه .. ايه – واه هاه» .

وهكذا أخذنا نرقص ونغنى بهذه الحركات الجنونية والقفزات والميل بأجسامنا فى شفق العالم البدائى ننشد بها النسيان ونحقق بها التآلف والاتحاد ونذير بها انهماكنا فى الجنون الجسدى . وهكذا كان غضبنا وهياجنا على العين الحمراء قد زالا بفضل تأثير الفن وأخذنا نصرخ الصرخات الجماعية العنيفة الخاصة بمجلس الطرب حتى حذرنا الليل من مخاوفه وزحفنا الى جحورنا فى الصخور ونحن ننادى بأصوات خافتة بينما يبزغ النجوم يخيم الظلام .

لم نخف شيئا سوى الظلام . لم تكن لدينا عقيدة الدين أو أية مفاهيم عن عالم غير منظور ولم نعرف سوى العالم الحقيقى فالأشياء التى نخافها هى الأشياء الحقيقية والأخطار الملموسة والحيوانات المفترسة التى هى من اللحم والدم هى التى تخيفنا من الظلام لأن الظلام هو الوقت الأنسب الذى تقوم الحيوانات المفترسة فيه باقتناص صيدها وفى ذلك الوقت تخرج من جحورها وتقفز على المرء من الأماكن المظلمة التى تكمن فيها غير منظورة .

وربما نشأ عن هذا الخوف من سكان الظلام الحقيقيين الخوف من السكان غير الحقيقيين ذلك الخوف الذى فيما بعد تجمع فى صورة عالم غير منظور كامل وقوى ومن المحتمل أن يكون الخوف من الموت من نمو الحياة قد زاد الى حد دفع القوم الى دس هذا الخوف فى الظلام وأسكنوه بالارواح . وأرى أن أهل النار قد بدأوا فعلا يخافون الظلام على هذا النحو . ولكن الأسباب التى دعتنا إلى إيقاف مجالس الطرب والهرب الى جحورنا هى سن السيف والأسود وأبناء آوى والكلاب المفترسة والذئاب وجميع أنواع أكلة اللحوم الجائعة .

الفصل الخامس عشر

وتزوج مسترخي الأذن . وكان هذا هو فصل الشتاء الثانى بعد رحلة مغامراتنا . وجاء هذا الامر على غير انتظار ولم يخطرنى باعتزامه إياه وعلمت أمره أول ماعلمته ذات غروب إذ تسلقت الجرف إلى كهفنا . وحصرت نفسى فى مدخل الكهف ثم توقفت إذ لم يكن هناك مكان لى . وقد استولى مسترخي الاذن ورفيقته على الكهف وكانت هى ابنة الثرثار زوج أمي .

وحاولت الدخول ولكن لم يكن هناك مكان سوى لاثنين وهذا المكان مشغول فعلا وكان موقفى سيئا وتلقيت الكثير من الخدوش وجذب الشعر وابتهجت بالتقهقر . ونمت تلك الليلة وعدة ليال آخر فى الممر الموصل بين جزئى الكهف المزدوج . وبدا لى هذا الممر على ضوء تجربتى الماضية آمنا الى درجة معقولة فكما راغ الرجلان من سن السيف العجوز كما رغت أنا من العين الحمراء كذلك بدا لى أنى أستطيع أن أروغ من الحيوانات المفترسة بالانتقال بين جزئى الكهف المزدوج جيئة وذهابا ونسيت الكلاب المتوحشة وهى صغيرة الحجم لدرجة تسمح لها بالمرور من أى ممر أستطيع اعتصار نفسى للمرور منه . وفى ذات ليلة اكتشف مكانى بحاسة الشم . ولو دخلت من بابى الكهفين فى وقت واحد لافترستنى وقد حدث فعلا أنى اجتزت الممر وبعضها فى اثرى واندفعت خارجا من باب الكهف . وخارج الباب كان بقية الكلاب المتوحشة فوثبت على عندما وثبت أنا الى سطح الجرف وأخذت أتسلق ووثب أحد هذه الكلاب وهو وحش جائع أعجف فلحق بى أثناء وثبى وغاصت أنيابه فى عضلات فخذى وكاد يجذبنى الى تحت . وظل ممسكا بى على هذا النحو ولكنى لم أبذل أى جهد للتخلص منه وكرست جهدى للتسلق لكى أصبح بعيدا عن متناول بقية الوحوش .

ولم أوجه انتباهي الى ذلك الألم الشديد في فخذي الا بعد أن أصبحت في مأمن من تلك الوحوش وذلك عندما أصبحت على ارتفاع اثنى عشر قدما من قطيع الكلاب المتوحشة العاوية وهي تقفز وتتزاحم على جدار الجرف وتسقط وأمسكت عنق الكلب المتعلق بي وأخذت أخنقه ببطء واستغرقت في ذلك وقتا طويلا وهو ينشب مخالبه في شعري وجلدي فينتزعه بساقيه الخلفيتين وأخذ يهتز ويهوى بثقله ليجرني معه بعيدا عن جدار الجرف وأخيرا انفتحت أسنانه فخرجت من لحمي المزق وحملت جسمه معي وأنا أصعد الجرف وقضيت الليلة قابعا في مدخل كهفي القديم حيث كان مسترخي الاذن مع أختي واضطررت باديء ذي بدء الى احتمال عاصف من السباب من جانب القبيلة الذين اسيقظوا لأني كنت السبب في هذا الازعاج وانتقمت لنفسي بأن عمدت إلى إلقاء قطعة من الحطب على قطيع الكلاب الضارية كلما خفت ضوضاؤها فتبدأ العواء من جديد وهنا يأتي من جديد سباب القوم من كل ناحية . وفي الصباح اقتسمت الكلاب مع مسترخي الاذن وزوجته وظللنا نحن الثلاثة عدة أيام لا نعيش إلا على الخضر أو الفاكهة .

ولم يكن زواج مسترخي الاذن زواجا سعيدا والعزاء الوحيد هو أنه لم يطل كثيرا وخلال الفترة التي استغرقها هذا الزواج لم يكن هو ولا أنا بالسعيد وشعرت بالوحدة وعانيت كثيرا مما سبب في طردي من كهفي الأمل الصغير من إزعاج ولم أستطع الاتفاق مع أحد صغار الذكور الآخرين . الا ان طول معايشتي لمسترخي الأذن أصبح عادة.

وصحيح أنه كان من المحتمل أن أتزوج لولا نقص الاثاث في القبيلة ومن العدل أن يفترض المرء أن مرجع النقص هو إسراف العين الحمراء في القتل وهذا مصدر خطر على القبيلة وعندئذ ظهرت السريعة التي لم أنسها قط .

وعلى كل حال ففي أثناء زواج مسترخي الاذن ظللت أتنقل من عمود لآخر وتعرضت في كل ليلة قضيتها للخطر دون أن أتذوق طعما للراحة ومات أحد رجال القبيلة ونقلت أرملته الى كهف رجل آخر من الجماعة. واستوليت على الكهف المهجور ولكنه كان واسع المدخل وبعد أن كان العين الحمراء يحاصرني فيه يوما ما عدت الى النوم في المر القائم داخل الكهف المزدوج .

ولما جاء الصيف قضيت أسابيع بعيدا عن الكهوف وأنا أنام في مأوى بشجرة صنعته بالقرب من البركة .

قلت أن مسترخي الاذن لم يكن سعيدا . فقد كانت أختي ابنة الثرثار وقد جعلت حياة مسترخي الأذن غاية في الشقاء فلم يشهد أي كهف من الكهوف نزاعا أو شقاقا كالذي شهده كهفهما . وإن كان العين الحمراء في فظاعة ذي اللحية الزرقاء فإن مسترخي الاذن كان زوجا خاضعا لامرأته وأتصور أن العين الحمراء كان أشد ذكاء من أن يستحوذ على زوجة مسترخي الاذن.

ولحسن حظ مسترخي الاذن ماتت زوجته . فقد حدث شيء غير عادي خلال ذلك الصيف فقبل انتهاء الصيف نبت محصول جديد من الجزر المتشعب الجذور. وكانت هذه الجذور التي نمت على غير انتظار حلوة ورقيقة ممتلئة بالعصير . وظلت بقعة الجزر بعض الوقت مكان الغذاء المفضل عند القطيع . وفي ذات صباح مبكر كان الكثيرون منا يتناولون طعام إفطارهم من ذلك الجزر وكان الأمر جانبي وبعده كان أبو عظم النخاع العجوز وذو الشفة الطويلة . والى جانبي الآخر أختي ثم زوجها مسترخي الأذن .

وعلى حين فجأة وبدون إنذار قفز الأمرد وأختي واقفين وهما يصيحان وفي نفس اللحظة سمعت أزيزا لسهمين اللذين اخترقهما وفي اللحظة التالية كانا ممدين على الأرض يخبطان ويلهثان وتسابق الباقون منا إلى الأشجار ومر بي سهم وغاص في الأرض وأخذت ساقه المريشة تهتز وتتذبذب تحت تأثير توقف سيره وأذكر بجلاء كيف انحرفت جانبا وأنا أمر به وأني أجذبته بيدي لأزيد سعة ذبذبته دون حاجة الى ذلك ولابد أني تهيبته كما يتهيب الجواد شيئا يخافه .

وسقط مسترخي الاذن وهو يجري بجواري سقطة شديدة إلا أن سهما اخترق باطن ساقه وأوقفه وحاول أن يجري ولكنه وقع ثانية . وجلس وهو يرتعد من الخوف وناداني متوسلا واندفعت عائدا اليه . وأراني السهم وأمسكته لأنتزعه من ساقه ولكن الألم الناتج عن ذلك جعله يمسك بيدي ويحول دون أن أنقذ ما اعتز منه . ومر من بيننا سهم طائر وأصاب سهم آخر صخره وأطار شظاياها وسقط على الأرض . وكان هذا أكثر مما أحتمل فجذبت السهم فجأة بكل ما لدي من

قوة. وصرخ مسترخى الاذن والسهم يخرج من ساقه وضربنى غاضبا ولكننا فى اللحظة التالية كنا نجرى بأقصى سرعة معا .

ونظرت ورائى ورأيت عظم النخاع العجوز وهو وحده بعيد يترنح فى صمت فى سباقه العاجز مع الموت وكاد يسقط ذات مرة بل أنه سقط فعلا ولكن لم تعد هناك سهام طائرة . وتعثر فى ضعف وهو يقف على قدميه . وكان عبء الشيخوخة ثقيلا جدا عليه ولكنه لم يشأ أن يموت واستطاع أهل الثأر الثلاثة الذين يجرون الآن من مكانهم فى الغابة أن ينالوه بسهولة ولكنهم لم يحاولوا ذلك وربما يرجع ذلك الى انه محض الشيخوخة والخشونة ولكنهم أرادوا - الأمرد وأختى لأنى عندما تطلعت الى الوراء من مكانى على الشجر ورأيت أهل النار يضربون رأسيهما بالحجارة . وكان أحد أهل النار ذلك الصياد العجوز الضامر الأعرج .

مضينا عبر الأشجار نحو الكهوف - جماعة مضطربة ثائرة تسوق أمامها صغار حيوانات الغابة الى جحورها وأخذ الطائر أبو زريق يصيح فى وقاحة والآن وبعد زوال الخطر انتظر ذو الوجه الطويل جده عظم النخاع وبينهما فجوة جبل . وسار الشيخ العجوز والشاب فى مؤخرتنا .

وهكذا عاد مسترخى الاذن أعزب ونمت معه تلك الليلة فى الكهف القديم . وعادت صداقتنا من جديد . وبدا لى أن فقده رفيقته لم يصبه بأى حزن أو على الأقل لم ألاحظ ذلك ولم يزعجه سوى الجرح الذى ألم بساقه وقضى أسبوعا حتى عاد إليه نشاطه وخفته .

وكان عظم النخاع هو الوحيد فى القبيلة ويبدو لى أحيانا عندما أتذكره وتكون ذكراه واضحة جدا وجود مشابهة مذهلة بينه وبين والد البستانى فقد كان والد البستان عجوزا جدا كثير التجاعيد والضمور وكان وهو يطل من عينيه الضيقتين الكالحتين ويتمتم بلثته الخالية من الأسنان ينظر ويفعل كما كان عظم النخاع ينظر ويفعل وكانت هذه المشابهة تخيفنى فكنت دائما أجرى حين أرى الرجل العجوز يترنح وهو يتوكأ على عصاتين بل لقد كان لعظم النخاع لحية بيضاء قليلة الشعر تشبه شاربى الرجل العجوز الطويلين.

وكان عظم النخاع كما قلت الرجل العجوز الوحيد فى القبيلة وكان شاذا فى

ذلك اذ أن أعضاء القبيلة لم يعمروا طويلا بل أنه من النادر أن يصل واحد منهم الى منتصف العمر . وكان الموت العنيف الطريق العادى للموت . وكانوا يموتون كما مات أبى وكما مات ذو السن المكسورة وكما ماتت أختى وفى غمرة الحياة واندفاعها لقد كان الموت - العنيف هو الطريق الطبيعى للموت فى تلك الأيام .

ولم يمت أحد بالشيخوخة فى القبيلة ولا أعرف حالة واحدة لمثل هذه الطريقة للموت وحتى عظم النخاع لم يمت تلك الميتة وكان الوحيد فى جيلى الذى كانت له الفرصة لذلك . وكان العجز وأى عطب يأتى مصادفة معناه الموت السريع ولم أشهد مثل هذه الوفيات بصفة عامة . إذ كان أعضاء القبيلة يختفون ببساطة فهم يخرجون من الكهوف صباحا فلا يعودون . كانوا يختفون فى بطون الحيوانات المفترسة الضارية .

وكان اقتحام أهل النار حقول الجزر بداية النهاية دون أن نعرف ذلك وزاد - ظهور الصيادين من أهل النار مع مرور الزمن وكانوا يجيئون أثنين أثنين أو ثلاثة ثلاثة يزحفون فى صمت خلال الغابة ومعهم سهامهم الطائرة القادرة على التغلب على البعد وعلى إسقاط الفريسة من قمة أعلى شجرة دون أن يتسلقوها هم . وكان القوس والسهم امتدادا لقدرتهم وعضلاتهم البارزة بحيث أنهم كانوا فعلا مستطيعين القفز والقتل على بعد مائة قدم وأكثر . ولقد جعلهم هذا أشد رهبة من سن السيف نفسه ثم كانوا حكماء كان لهم كلام يعينهم بصورة فعالة على الفهم وبالاضافة الى ذلك كانوا يفهمون التعاون .

أما نحن فكان الحذر يحدونا ونحن فى الغابة . وكنا أكثر يقظة وتأهبا وخوفا ولم نعد مستطيعين الاعتماد على الاشجار فى حملتنا ولم نعد مستطيعين الجلوس على فرع شجرة والضحك ساخرين من الحيوانات المفترسة على الأرض اذ كان أهل النار مفترسين ذوى مخالب وأنياب طولها مائة قدم وكانت أشد الحيوانات المفترسة فظاعة فى ذلك العالم البدائى ذات صباح وقبل أن تتفرق القبيلة انتشر الذعر بين حاملى الماء والذين كانوا قد ذهبوا الى النهر ليشربوا . وأسرعت القبيلة كلها الى الكهوف كانت هذه هى عادتنا فى مثل هذه الأوقات نسرع الى الكهوف ثم نفحص الأمر فيما بعد . وانتظرنا عند مداخل الكهوف وراقبنا وبعد

وقت خرج الى المكان المكشوف أحد أهل النار فى حذر كان ذلك هو الصياد العجوز الضامر وقف وقتاً طويلا وهو يرقبنا وينظر الى كهوفنا وسور الجرف – علوا وسفلا ونزل فى أحد الدروب الموصلة للموردة ثم عاد على أعقابه وأخذ يعرج عائدا الى داخل الغابة تاركا إيانا ونحن نتشاجر ونتاشكى بعضنا مع البعض الآخر من مداخل الكهوف .

الفصل السادس عشر

وجدتها فى الجدار القديم بالقرب من مستودع التوت الأزرق حيث كانت أمى تعيش وحيث كنت ومسترخى الأذن قد بنينا أول مأوى لنا فوق الشجر وقد جاء هذا على غير انتظار .

وإذ جئت تحت الشجرة سمعت الصوت الناعم المألوف وتطلعت إلى فوق كانت السريعة هناك جالسة على فرع الشجرة تؤرجح ساقيها إلى الوراء والأمام وهى تنظر إلى .

ووقفت ساكنا بعض الوقت فقد جعلتنى رؤيتها سعيدا كل السعادة وعندئذ شعرت بقلق وألم يزحفان على هذه السعادة ينتقصان منها .

وأخذت أتسلق الشجرة وراءها وتراجعت إلى الوراء فى بطء وفى اللحظة التى وصلت إليها فيها قفزت فى الهواء ونزلت على الشجرة المجاورة . وأطلت على من بين الأوراق وأخذت تصدر أصواتا خافته . وقفزت نحوها قدما وبعد مطاردة مثيرة تكرر نفس الموقف إذ أصبحت فى الشجرة الثالثة تصدر أصواتا خافته وتطل على من بين الأوراق .

وقد تذكرت أن هذا الوضع يختلف على نحو عما كان عليه الأمر فى الأيام الخالية قبل أن نخرج أنا ومسترخى الأذن فى رحلة مغامرتنا . فقد أصبحت أريدها وعرفت أنى أريدها وهى أيضا عرفت ذلك – لهذا لم تسمح لى بالدنو منها.

ونسيت أنها هى حقا السريعة وأنها معلمتى فى التسلق . وطاردتها من شجرة إلى أخرى وكانت دائما تزوغ منى وتنظر إلىَّ بعينين محبتين وتصدر أصواتا ناعمة وترقص وتتأرجح أمامى وهى بعيدة المنال .

وكلما راوغتنى زادت رغبتى فى اللحاق بها وشهدت ظلال بعد الظهر الطويلة بعدم جدوى ما أبذله من جهد .

وعندما كنت أطاردها أو أستريح أحيانا على شجرة مجاورة وأرقبها كنت ألاحظ ما طرأ عليها من تغيير أصبحت أكبر حجما وأثقل وزنا ونضجا وأصبحت خطوطها أكثر استدارة وعضلاتها أشد امتلاء وكان فيها ذلك الشىء غير المحدد من النضج والجديد والذى ظل يحفزنى . كانت قد غابت ثلاثة أعوام على الأقل وأصبح التغيير فيها ملحوظا . أقول ثلاثة أعوام وذلك بقدر ما أستطيع قياس الزمن وربما يكون عام رابع قد أنصرم واختلط على أمر أحداثه وتشابهت أحداثة مع أحداث الأعوام الثلاثة الأخرى - وكلما ازددت تفكيرا فى هذا ازددت ثقة فى أنها لابد أن تكون قد غابت أربعة أعوام .

ولا أعرف أين ذهبت ولا لماذا ذهبت ولا ماحدث لها فى غضون ذلك الوقت . ولم تكن لها وسيلة تستطيع بها إبلاغى كل ذلك كما لم تكن لى ولا لمسترخى الأذن وسيلة نستطيع بها إبلاغ القبيلة ما رأينا أثناء غيابنا والمحتمل هو أنها ربما تكون قد ذهبت مثلما ذهبنا نحن فى رحلة مغامرات وحدها ومن ناحية أخرى يحتمل أن يكون العين لتقى بها من حين لآخر وهى هائمة فى الغابات وإذا كان قد طاردها فلاشك فى أن هذا كان لإبعادها وأعتقد على ضوء الأحداث المتلاحقة أنها لابد أن تكون قد مضت بعيدا نحو الجنوب وعبرت سلسلة من الجبال ونزلت إلى شواطىء نهر غريب بعيد عن أية جماعة من نوعها .

وكان الكثيرون من أهل الشجر يعيشون هناك ولابد أن يكون هؤلاء هم الذين أعادوها أخيرا إلى القطيع وإلىّ . وسأوضح الأسباب التى أستندت إليها فى ذلك الرأى فيما بعد .

واستطالت الظلال وازددت حماسا فى المطاردة ومع ذلك لم أستطع اللحاق بها وجعلتنى أعتقد أنها تحاول الهرب منى متعمدة ذلك وعملت طول الوقت إبقائى أرقب ما أكون إليها مع بعدها عن متناول يدى . ونسيت كل شىء من الزمن واقتراب الليل وأعدائى أكلة اللحوم .

وأصبحت مجنونا بحبها وزاد الغضب من جنونى لأنها لم تسمح لى باللحاق

بها . ومن الغريب أن بدا لى أن هذا الغضب عليها كان جزءا من رغبتى فيها . الثعابين لم تعوقنى . كنت مجنونا وهاجمتنى ولكنى كنت أحنى رأسى وأزوغ منها وأستمر فى الجرى ثم ظهر تنين البر الذى إذا صادفنى فى الأحوال العادية دفعنى إلى الجرى صارخا مستغيثا إلى قمة شجرة ولكن لم يدفعنى هذه المرة إلى شجرته فالسريعة قد أختفت عن ناظرى وفرت إلى الأرض ومضيت فى طريقى .

وكانت الأرض مغطاة بعشب قصير ثم رأيت الضبع عدوى القديم وأدرك من سلوكى أن شيئا ما سيحدث بالتأكيد وظل يتبعنى ساعة كاملة . وفى ذات مرة رأينا قطيعا من الخنازير البرية فأخذت فى مطاردتنا وقفزت السريعة قفزة واسعة جريئة بين الأشجار وكانت هذه القفزة أكثر مما أستطيعه أنا واضطررت إلى النزول إلى الأرض حيث الخنازير ولم أعبأ بها.

وضربت الأرض على بعد ياردة من أقرب خنزير وأحاطت الخنازير من الجانبين وأنا أجرى وطاردتنى إلى شجرتين مختلفتين بعيدا عن مسارى فى مطاردة وعدت إلى الأرض ثانية وعدت إلى الوراء وعبرت مكانا مكشوفا والقطيع كله غاضب صاحب كاشف عن أنيابه فى أعقابى .

ولما تعثرت فى ذلك المكشوف فقدت الأمل ولكنى لم أتعثر ولم يكن يعنينى أن أتعثر أولا أتعثر فقد كنت فى حالة أستطيع فيها مواجهة سن السيف نفسه أو عشرة من أهل النار الذين يضربون بالسهام . هكذا كان جنون الحب عندى .

أما عند السريعة فقد بدا الأمر مختلفا عن ذلك كانت حكيمة غاية الحكمة فلم تخاطر أية مخاطرة حقيقية وأذكر وأنا أسترجع عبر القرون ذكرى تلك المطاردة الغرامية أنه عندما كانت الخنازير تعوقنى لم تسرع فى الجرى بل أنتظرت استئناف المطاردة من جديد كما أنها كانت توجهنى دائما فى الاتجاه الذى تريده.

وأخيرا حل الظلام وقادتنى حول كتف سور واد يغطيه الطحلب وهو بارز بين الأشجار وبعد ذلك توغلنا فى مجموعة كثيفة من الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة وكانت تخدشنى وتمزق جلدى أثناء مرورى بينها .

أما هى فلم تتحرك فيها شعرة إذ كانت تعرف الطريق وكانت شجرة سنديان ضخمة تتوسط الأجمة وأصبحت قريبا منها غاية القرب عندما تسلقت الشجرة وبين الفروع وفى العش الذى بحثت عنه عبثا فترة طويلة لحقت بها .

وكان الضبع قد عاد يتتبع أثرنا وأخيرا جلس على الأرض تحت الشجرة وأخذ يعوى عواء الجوع ولكننا لم نعبأ به بل ضحكنا منه عندما كشر عن أنيابه ومضى بعيدا خلال الأجمة . وكان الوقت ربيعا وضوضاء الليل عديدة ومتنوعة . وكان هناك قتال كبير بين الحيوانات كما هى العادة خلال ذلك الفصل من فصول السنة. واستطعنا أن نسمع من عشنا صهيل الجياد البرية وصياح الفيلة وزئير الأسود. ولكن برز القمر وكان الهواء دافئا وضحكنا وزال عنا الخوف .

وأذكر أننا فى الصباح عثرنا على طائرين مطوقين يتقاتلان بحمية إلى درجة أنى ذهبت إليهما وأمسكت عنقيهما . وهكذا حصلنا أنا والسريعة على إفطار زفافنا .

كانا لذيذين . كان سهلا اصطياد الطيور فى فصل الربيع وقد حدث ذات ليلة من ذلك العام أن أقتتل أثنان من الأيائل فى ضوء القمر وكنت أنا والسريعة نرقب هذا من فوق الشجرة فرأينا أسدا ولبؤة يزحفان نحوهما دون أن يلتفت المتقاتلان إليهما ثم يقتلانهما أثناء قتالهما .

وليس هناك من سبيل لمعرفة كم من الوقت قضينا فى بيت السريعة فوق الشجرة . ولكن حدث ذات يوم أن كنا بعيدين عنه حين أصابت الشجرة صاعقة أحرقت فروعها الكبيرة وهدمت البيت . وأخذت أعيد بناءه ولكن السريعة رفضت البقاء فيه .

وعلمت فيما بعد أنها كانت تخشى الصواعق كثيرا ولم أستطع إقناعها بالعودة إلى تلك الشجرة . وهكذا ذهبنا بعد انقضاء شهر العسل إلى الكهوف لنقيم فيها . وكما طردنى مسترخى الأذن من الكهف حين تزوج طردته الآن واستقر بنا أنا والسريعة المقام فى الكهف فكان ينام ليلا فى الممر الموصل بين جزئى الكهف المزدوج .

ومع عودتنا للإقامة مع القبيلة جاءت المتاعب . وكان العين الحمراء قد تزوج عدة زيجات بعد المغنية ولا أدرى كيف تم ذلك ولابد أنها ذهبت فى الطريق الذى ذهبت فيه الأخريات .

أما الآن فقد كانت معه زوجة صغيرة ناعمة بليدة لاتكف عن البكاء وقبل أن

تموت استقرت أنظار العين الحمراء على السريعة . وبعد أن ماتت زوجته بدأت مضايقاته للسريعة .

ومن حسن حظها أنها كانت السريعة وأن لها تلك القدرة العجيبة على الطيران السريع بين الأشجار . وكانت فى حاجة إلى استخدام كل ماليديها من حكمة وجرأة – للابتعاد عن قبضة العين الحمراء . ولم يكن فى استطاعتى أن أساعدها فقد كان شديد القوة إلى حد أنه كان مستطيعا أن يمزق أعضائى .

فقد ظللت حتى آخر حياتى بكتف مصابة تؤلمنى وساق تعرج فى الجو المطير وذلك كثير من آثار عنفه .

وكانت السريعة مريضة فى الوقت الذى أصيب فيه هذه الإصابة ولابد أنها كانت بها الملاريا التى كنا نعانيها أحيانا ولكن كائنا ما كان مرضها فإنها جعلها كئيبة ثقيلة الحركة ولم تعد فى عضلاتها قدرتها المعهودة على لقفز ولم تعد فى حال تسمح لها بالمقاومة حين حاصرها العين الحمراء فى ركن قريب من وجار الكلاب البرية على بعد عدة أميال من الكهوف وكان من الممكن أن تدور حوله وتضربه على الفور حتى تصل إلى كهفنا ذى المدخل الضيق فتصبح فى أمان ولكنها لم تستطع الدوران حوله إذ كانت بطيئة بليدة وفى كل مرة كان يضيق الحصار حتى كفت عن المحاولة وكرست كل جهدها فى البقاء بعيدا عن قبضة يده.

ولو لم تكن مريضة لكان إفلاتها منه بالنسبة لها لعب أطفال ولكن الأمر تطلب كل ما فيها من حذر ومكر وقد ساعدها أنها كانت أكثر منه استطاعه السير فوق فروع الشجر الأقل سمكا كما أنها كانت تفوقه فى اتساع القفزة كما أن حكمها على المسافات لم يكن يخطىء وأن غريزتها تدلها على قوة أطراف الأغصان والفروع الفاسدة .

وظلت المطاردة مستمرة بغير توقف فاندفعا بدوران ويدوران ويعودان إلى الوراء . ويمضيان إلى الأمام فترات طويلة خلال الغابة . وأشتد انفعال القبيلة وجلسوا يثرثرون ثرثرة شديدة وكان صوت هذه يعلو إذا ما ابتعد العين الحمراء ويخفت إذا أدنته المطاردة منهم .

كانوا متفرجين عاجزين . وصرخت الأناث وتمتمن أما الذكور فقد ضربوا – صدورهم فى غضب عاجز . وكان ذو الوجه الكبير أشدهم غضبا وأن كان يحدث ضوضاء عندما يقترب العين الحمراء الا أنه لم يخففه إلى الحد الذى كان الآخرون يصلون إليه فى خفض ضوضائهم .

أما أنا فانى لم أقم بأى عمل جرىء وكنت أعرف أننى قد أكون أى شىء ألا أن أكون بطلا . وفضلا عن ذلك فماذا يعود علي لو إنى واجهت العين الحمراء ؟ كان ماردا جبارا ووحشا أشد ما تكون الوحشية والأمل لى فى صراع قوة كان يقتلنى ويبقى الموقف دون تغيير ويمسك السريعة قبل أن تصل إلى الكهف ولم أستطع أن أفعل أكثر من النظر إليهما فى غضب العاجز وأن أبتعد من طريقه وأكف عن هياجى عندما يزداد قربا .

ومرت الساعات وأصبح الوقت متأخرا بعد ظهر ذلك اليوم ومع ذلك فقد استمرت – المطاردة وكان العين الحمراء عاكفا على إجهاد السريعة وتعمد إبقاءها تجرى وبعد انقضاء وقت طويل بدأت تتعب ولم تعد مستطيعة الاستمرار فى الجرى وعندئذ أخذت تتوغل بعيدا فوق فروع الشجر الدقيقة حيث لايستطيع أن يتتبعها وحيث تستطيع التقاط أنفاسها ولكن العين الحمراء كان شيطانا إذ عندما عجز عن متابعتها حاول أن يوقفها بهز أطراف الشجرة فاستجمع كل قوته وثقله وأخذ يهز فرع الشجرة إلى الوراء وإلى الأمام حتى أوقفها كما يوقع المرء ذبابة من طرف عصا رخوة يهزها . فأنقذت نفسها بالسقوط على فروع تحت الفرع الذى وقعت منه وبعد ذلك لم تنقذها هذه الفروع من الوقوع على الأرض ولكنها خففت من هذا الوقوع إذ وقعت على فرع آخر ومنه إلى الأرض ولكنها سرعان ماصعدت شجرة أخرى . وفعل بالفرع الذى نزلت عليه ما فعله بالفرع الذى كانت عليه بالشجرة الأخرى ولكنها لم تسقط على الأرض بل دفعتها هزة الشجرة إلى شجرة أخرى وما كانت لتنشد الأمان بالالتجاء إلى فروع الأشجار الدقيقة الا إذا اضطرت إلى ذلك اضطرارا ولكن التعب بلغ منها مبلغا جعل هذه الفروع الدقيقة الوسيلة الوحيدة لتحاشيه فلجأت مرة بعد أخرى لتلك الفروع .

ومع ذلك استمرت المطاردة واستمر صراخ القبيلة وضربهم صدورهم

وضغطهم على أسنانهم ثم جاءت النهاية . وكان قد حل الغسق وتعلقت السريعة بفرع شجرة دقيق عال وهى – ترتعد وتلهث محاولة التقاط أنفاسها بصورة تدعو للرثاء .

وكان هذا الفرع على أرتفاع ثلاثين قدما من الأرض وليس بينه وبين الأرض حاجز وأخذ العين الحمراء يتأرجح إلى الأمام وإلى الوراء على نفس فرع الشجرة عند جزئه السميك . وأصبح فرع الشجرة كالبندول تزداد أرجحته اتساعا مع كل ضغط من ثقله ثم عكس حركته وأفلتت أصابعها من الفرع وتكومت وهى تصرخ أثناء سقوطها .

ولكنها عدلت وضعها و هى فى الهواء فنزلت بقدميها على الأرض ولو كانت فى حالتها العادية وسقطت من مثل هذا الأرتفاع الشاهق لخففت عضلات ساقيها قوة الاصطدام بالأرض ولكنها كانت منهكة القوى ولم تستطع استخدام عضلات ساقيها بل أنهما لم تستطيعا حملها بعد أن تحملتا بعض أثر الصدمة فوقعت على جنبها ولم يؤلمها هذا الا أنه بهر أنفاسها ورقدت بلا حول أو قوة تجاهد هواء تستنشقة .

واندفع العين الحمراء نحوها وأمسكها ودس أصابعه المعقده فى شعر رأسها ولفه على تلك الأصابع ووقف يأر زئير الانتصار والتحدى لأولئك القوم الذين يرقبونه من فوق الأشجار وعندئذ جن جنونى وألقيت بالحذر جانبا ولم تعد لى أية إرادة للحياة .

وبينما كان العين الحمراء يزأر قفزت عليه من وراء ظهره وكان هجومى مفاجئا إلى حد أنى أستطعت إيقاعة على الأرض ولففت ذراعى وساقى حوله وعملت على إبقائه طريحا على الأرض . وكان من المستحيل أن أنجح فى هذا لو لم يكن قد شبك يده فى شعر السريعة .

وشجع سلوكى ذا الوجه الكبير فجاء لنصرتى على حين فجأة وهجم على العين الحمراء وغاصت أسنانه فى ذراعه وأخذ يخدش ويمزق وجهه كان هذا هو أوان انضمام القبيلة للمعركة . وكانت فرصة لتلقين العين الحمراء درسا لاينساه ولكنهم ظلوا مختفين فى الأشجار .

وكان لابد من انتصار العين الحمراء فى معركة ضدنا نحن الأثنين ولكن يرجع سبب ذلك إلى عدم إجهازه علينا فورا إلى أن السريعة عطلت حركته . استعادت أنفاسها وبدأت – تقاوم ولم يشأ أن يخلى شعرها من قبضته مما عوقه . وأمسك ذراعى بقوة فكان هذا بداية النهاية بالنسبة لى . وأخذ يجرنى إلى وضع يستطيع معه أن يغرس أسنانه فى عنقى وكان فمه مفتوحا وهو يبتسم ويسبب تلك الحركة التى انتزعت كتفى على نحو ظللت – أعانى منه بقية حياتى .

وفى تلك اللحظة وقع جسم كبير علينا نحن الأربعة ونحن متماسكون بدون إنذار وافترقنا بعضنا عن البعض الآخر بعنف وأخذنا نتدحرج متباعدين أكثر فأكثر . وقد أخلى كل منا سبيل الآخر تحت تأثير المفاجأة . وفى لحظة الذهول صاح ذو الوجه الكبير صيحة هائلة ولم أعرف ماذا حدث وأن كنت قد شممت رائحة نمر ولمحت الفراء المخطط وأنا أقفز نحو شجرة .

كان هذا هو سن السيف أثارته فى عرينه الضوضاء الصادرة عنا فزحف علينا دون أن نلاحظة ووصلت السريعة إلى الشجرة المجاورة لشجرتى ولحقت بها على الفور وأحطتها بذراعى وضممتها إلى وهى تبكى بصوت خافت .

وجاءنا من الأرض صوت زمجرة وقضم عظام . كان سن السيف يتناول عشاءه مما كان من قبل ذا الوجه الكبير . وكان العين الحمراء يطل عليه من ورائه بعينين محمرة الأطراف . هنا مارد أشد منه قوة واستدرنا أنا والسريعة ومضينا بعيدا فى هدوء عبر الأشجار نحو الكهف بينما كانت القبيلة متجمعة فوقنا تمطر عدوتها بالسباب وأطراف فروع الأشجار والأغصان .. وهز العدو ذيله وزمجر ولكنه استمر يأكل .

وعلى هذا النحو تم إنقاذنا . وكانت مجرد مصادفة عابرة وإلا لمت فى قبضة العين الحمراء ولما كان هنالك جسر الزمن عبر آلاف القرون إلى سليل يقرأ الصحف ويركب مركبات الكهرباء – بل ويكتب قصصا عن الأحداث الماضية كما يكتب هذه القصة .

الفصل السابع عشر

حدث فى اوائل فصل الخريف من العام التالى بعد أن فشل العين الحمراء فى الحصول على السريعة أن اتخذ له زوجة أخرى ومن العيب أن نذكر انها لاتزال حية. والأغرب من هذا أنهما رزقا مولوداً بلغ عمره عدة أشهر هو أول أبناء العين الحمراء. فزوجاته السابقات لم يعشن حتى ينجبن له أبناء. ومر العام بخير علينا جميعاً. فقد كان الطقس معتدلاً بصورة غير مألوفة كما كان الطعام وفيراً. وأذكر بصفة خاصة ثمار اللفت فى ذلك العام كما كان محصول البندق غزيراً جداً والبرقوق أكبر حجماً وأكثر حلاوة مما كان عليه عادة.

وكان ذلك العام باختصار عاماً ذهبياً. وعندئذ حدث هذا الأمر كان الوقت فى الصباح المبكر واندهشنا فى كهوفنا واستيقظنا من نومنا فى الضوء الأشهب البارد أو استيقظ – أغلبنا لمواجهة الموت. فقد أيقظنا أنا والسريعة ضجيج صراخ وتمتمة وكان كهفنا أعلى الكهوف فوق الجرف وزحفنا إلى باب الكهف وأطللنا كانت الأرض العراء قد امتلأت بأهل النار وزادت صيحاتهم وصرخاتهم من الضجة ولكنهم كانوا ذوى نظام وخطة بينما لم يكن لنا نحن شيء من هذين وكل منا يقاتل وحده ويعمل بنفسه ولم يعرف أحدنا مدى الكارثة التى حلت بنا.

ولما بلغنا مرحلة قذف الحجارة كان أهل النار قد جمعوا أنفسهم عند قاعدة الجرف ولابد أن تكون أول مجموعة من الحجارة قذفناها قد حطمت بعض الرءوس لانهم عندما تراجعوا عن الجرف تركوا ثلاثة منهم على الأرض. وظل هؤلاء الثلاثة يكافحون ويتخبطون واحدهم يحاول الابتعاد زاحفاً ولكننا ثبتناهم وفى هذا الوقت كنا نحن الذكور نزأر غضباً وأمطرنا الرجال الثلاثة الذين كانوا تحت الجرف

بالحجارة. وعاد بعض رجال النار لجرهم الى حيث الأمان ولكن حجارتنا ردت المنقذين إلى الوراء.

وغضب أهل النار وأصبحوا حذرين كذلك وبالرغم من صيحاتهم الغاضبة ظلوا على بعد مسافة وأطلقوا علينا وابلاً من السهام وأوقفت السهام قذف الحجارة. وفى الوقت الذى قتل فيه ستة منا وأصيب عشرة بجراح تراجع بقيتنا إلى داخل كهوفنا ولم أكن بعيداً عن مرمى السهام فى كهفى العالى ولكن المسافة كانت كبيرة لدرجة تكفى لإفساد فاعلية السهام ولم يضيع أهل النار سهامهم بتصويبها نحوى وأردت أن أرى بدافع من فضولى وبقيت السريعة فى داخل الكهف ترتعد خوفاً وتبكى بكاء خافتاً لأنى لم أشا الدخول وقبعت عند المدخل وأخذت أرقب.

وأصبح القتال الآن متقطعاً ونحن فى الكهوف والسؤال الذى يواجهه أهل النار هو كيف يخرجوننا من الكهوف ولم يجرؤا على مطاردتنا أما نحن بصفة عامة فما كنا نعرض أنفسنا لسهامهم. ومن حين لآخر يضرب أحدهم أطراف الجرف فيقذف واحد أو آخر من القبيلة حجراً عليه ويتعرض بدوره لأن ترشق فيه ستة أو عشرة سهام واستمرت هذه الطريقة بعض الوقت ولكن القبيلة لم تعد تنخدع أو يغرر بها لتعريض أنفسها. فتم التوقف تماماً.

ورأيت بين أهل النار الصياد العجوز النحيل الصغير وهو يوجه القتال كله وهم يطيعونه ويذهبون هنا وهناك تنفيذاً لأوامره. وذهب بعضهم إلى داخل الغابة وعاد بأحمال من الخشب والأوراق والاعشاب الجافة. واقترب جميع أهل النار بينما وقف أغلبهم مشرعين القسى والسهام مستعدين لاطلاقها على اى واحد من القبيلة يعرض نفسه لها. وكوم عدد كبير من أهل النار العشب الجاف والخشب عند أبواب الطبقة الأولى من الكهوف. ومن هذه الأكوام أطلقوا المارد الجبار الذى نخشاه وهو «النار». وارتفعت سحب الدخان فى أول الأمر وتكورت صاعدة الجرف. ثم رأيت ألسنة اللهب الحمراء تنبثق خارجة من الحطب الرفيع الذى يشبه الحيات داخلة فيه. وأخذ الدخان يزداد كثافة شيئاً فشيئاً وهو يغلف واجهة الجرف كلها أحياناً. ولكنى كنت عالياً جداً فلم يزعجنى كثيراً وأن ألم عينى فمسحتها بمفاصل أصابعى.

وكان عظم النخاع العجوز أول من اخرجه الدخان من كهفه. وهبت نسمة هواء

خفيفة أبعدت الدخان وقتئذ بحيث استطعت أن أرى بوضوح. خرج وسط الدخان وخطا فوق فحم ملتهب وصاح بسبب الألم المفاجيء الذى أحسه فى قدميه وحاول أن يرتقى الجرف وانهالت السهام عليه وتوقف على طنف وأمسك نتوءاً صخرياً يستند إليه ولهث وعطش وهز رأسه وأخذ يترنح إلى الوراء وإلى الامام وكانت أطراف السهام المريشه تبرز من جسده كان عجوزاً ولم يرد أن يموت وزاد اتساع تأرجحه وضعفت ركبتاه عن حمله وولول شاكياً وانفرجت أصابعه عن قبضتها على النتوء الصخرى واشتد ميله إلى الخارج وسقط على الأرض ولابد أن تكون عظامه قد تكسرت بصورة محزنة وتأوه وبذل جهداً ضعيفاً للنهوض ولكن أحد أهل النار اندفع إليه وهجم عليه وضربه على أم رأسه بعصا فأخرج منها مخه.

وحدث للكثيرين من أعضاء القبيلة ما حدث لعظم النخاع إذ عجزوا عن تحمل الاختناق بالدخان واندفعوا خارجين من كهوفهم وأصابتهم السهام وسقطوا على الأرض وبقى بعض النساء والأطفال داخل الكهوف وماتوا اختناقاً ولكن اغلبيتهم لقوا حتفهم خارج الكهوف.

وعندما اخلى أهل النار بهذه الوسيلة الصف الأول من الكهوف أخذوا يعدون عدتهم لمضاعفة قوة العملية حتى تؤثر على كهوف الصف الثانى نفس التأثير. وبينما كانوا يتسلقون بأعشابهم وحطبهم نجح العين الحمراء تتبعه زوجته والطفل ممسك بهما بقوة فى الهرب صاعداً للجرف ولابد أن يكون أهل النار قد استنتجوا أننا سنبقى فى الكهوف فى الفترة التى توقف فيها تصاعد الدخان ولهذا لم يكونوا مستعدين ولم تبدأ سهامهم فى الانطلاق إلا بعد أن كان العين الحمراء وزوجته قد أصبحا فى قمة الجرف. وعندما وصل إلى القمة استدار ونظر إليهم وأخذ يزأر وهو يدق صدره بيده. وصوبوا قسيهم وسهامهم إليه وأطلقوا السهام نحوه. ولم تصبه السهام وهرب.

وراقبت طبقة ثالثة من الكهوف والدخان يوجه إليها ويخرج أهلها منها ثم طبقة رابعة وهرب القليلون من أعضاء القبيلة صاعدين الجرف أما أغلبهم فقد أصابتهم السهام وأسقطتهم من واجهة الجرف اثناء محاولتهم الصعود. وأذكر ذا الشفة الطويلة. إذ مضى صاعداً حتى بلغ طنف الجرف الذى كنت عليه فاخترق صدره

سهم جعله يصرخ بصورة تثير الرثاء وكانت مؤخرة السهم المريشة بارزة من ظهره بينما نصله وهو من العظم برز من صدره ووقع أمامى على الطنف والدم ينزف من فمه بغزارة.

وفى هذا الوقت أخذت الطبقات العليا من الكهوف تخلو من أهلها فى وقت واحد وأسرع جميع اعضاء القبيلة تقريباً ممن لم يخرجوا الدخان من كهوفهم أسرعوا يصعدون الجرف متدافعين فى وقت واحد. وانقذ هذا العميل الكثيرين. إذ لم يستطع أهل النار أن يطلقوا من السهام ما يكفى لقتلهم جميعاً. وملأوا الجو سهاماً وسقط العشرات من أعضاء القبيلة الذين أصابتهم السهام ومع ذلك فقد وصل البعض إلى القمة وهربوا.

وأصبح دافعى إلى الهرب الآن اقوى من دافع الفضول. وكفت السهام عن الانطلاق وبدا أن آخر أعضاء القبيلة قد ذهب وإن كان من المحتمل وجود القليلين مختبئين فى الكهوف العليا. ومضينا أنا والسريعة نتسلق الجرف نحو قمته. ولما رآنا أهل النار صاحوا صيحة عالية ولم أكن أنا سبب هذه الصيحة بل كانت السريعة سببها. وأخذوا يثرثرون فى انفعال وهم يشيرون إليها. ولم يحاولوا إطلاق السهام نحوها فلم يطلقوا سهماً واحداً وأخذوا ينادون بصوت خافت ملاطفين. ودققت ونظرت إليهم وكانت هى خائفة وبكت وحثتنى على المضى وهكذا مضينا صعداً وتجاوزنا القمة ودخلنا بين الأشجار.

وكثيراً ما حملنى هذا الحادث على التساؤل والتكهن. لو أنها حقاً من النوع الذى ينتمون إليه فلابد أنها سبق أن تاهت منهم وهى صغيرة إلى حد لايسمح لها بتذكر ما وقع وإلا لما خافت منهم ومن ناحية أخرى فقد تكون من نوعهم ولا تكون قد تاهت منهم بل تكون قد ولدت فى الغابة بعيداً عن مساكنهم وربما أبوها منهم وخرج عليهم وأمها من نوعى أنا. من يدرى؟ أن هذه الأمور تفوق إدراكى ولم تكن السريعة لتعرف عنهم أكثر مما أعرف أنا.

وعشنا يوم رعب. وهرب أغلب الباقين إلى مستنقع التوت الأزرق وأوى إلى الغابة التى بجواره. وظلت جماعات من أهل النار تطاردنا فى الغابة يقتلوننا حيثما وجدونا. ولابد أنها خطة نفذت بامعان. قرروا بها غزونا متجاوزين حدود

أراضيهم. أسف لتعبير الغزو! فلم تكن لنا أية قدرة على مقاومتهم. كانت مذبحة. مذبحة لا تميز بين ضحية وضحية أخرى لأنهم لم يتركوا أحداً فكانوا يقتلون الكبير والصغير ويطهرون الأرض منا بصورة فعالة.

كان الأمر بالنسبة لنا نهاية العالم. وهربنا إلى الأشجار كآخر ملجأ لنا ليحيطوا بنا ويقتلوننا أسرة أسرة. وشهدنا الكثير من هذا ذلك اليوم ولم نبق أنا والسريعة طويلاً فى شجرة واحدة وهكذا أفلتنا من الاحاطة بنا. ولكن لم يبد هناك مكان نذهب إليه.

فأهل النار فى كل مكان منهمكون فى إنجاز عملية الإفناء وحيثما ذهبنا وجدناهم ولهذا السبب رأينا الكثير من أعمالهم.

ولم أر ما حل بأمى ولكنى رأيت الثرثار يصيبه سهم فيسقطه من الشجرة القديمة التى كان فيها مقامنا وحين رأيت هذا المنظر قمت بالتأرجح فرحاً. وقبل أن أترك هذا الجزء من روايتى لابد أن أحكى ما حدث للعين الحمراء. حوصر هو وزوجته فى شجرة بجوار مستنقع التوت الأزرق. ووقفت أنا والسريعة طويلاً لنرى. وكان أهل النار منهمكين فى عملهم على نحو لم يسمح لهم بملاحظتنا وفضلاً عن ذلك فقد كنا مختبئين تماماً فى الأجمة حيث قبعنا.

وكان هناك عشرة من الصائدين تحت الشجرة يطلقون السهام داخلها وكانوا دائماً يلتقطون سهامهم عندما ترتد إلى الأرض. ولم أستطع أن أرى العين الحمراء ولكنى سمعته يعول من مكان ما بالشجرة. وبعد فترة قصيرة أصبح عويله مكتوماً ولابد أن يكون قد زحف إلى فجوة فى جذع الشجرة ولكن زوجته لم تنل مثل هذا الملجأ فأصابها السهم وأسقطها على الأرض وكانت إصابتها شديدة لأنها لم تبذل أى جهد للهرب. وانحنت على طفلها (المتعلق بها جيداً) تحميه وأخذت تتوسل بالإشارات والأصوات إلى أهل النار. وتجمعوا حولها وضحكوا منها كما ضحكنا أنا ومسترخى الأذن من رجل الشجرة العجوز بل وكما كنا ننخسه بالعصى وأطراف الأغصان كذلك فعل أهل النار بزوجة العين الحمراء نخسوها بأطراف قسيهم ووخزوها فى أضلاعها. ولكنها لم تشبع مرحهم لأنها لم تناضل بل ولم تغضب واستمرت منحنية فوق طفلها وهى تتوسل اقترب منها واحد

من أهل النار وبيده عصا ورأت وفهمت ولكنها ظلت تصدر أصوات التوسل حتى هوت الضربة على رأسها.

وكان العين الحمراء فى تجويف جذع الشجرة فى أمان من سهامهم وتجمعوا وتبادلوا النقاش بعض الوقت ثم تسلق أحدهم الشجرة ولم استطع أن أعرف ما حدث فوق الشجرة ولكنى سمعته يصيح ورأيت ابتهاج الذين ظلوا تحت الشجرة وبعد عدة دقائق سقط جسده على الأرض ولم يتحرك ونظروا إليه ورفعوا رأسه ولكنها سقطت خدرة عندما أفلتوها كان العين الحمراء قد أوضح الأمر نفسه.

وكانوا غاضبين أشد الغضب. ولم تكن هناك فتحة فى جذ ع الشجرة قريباً من الأرض وجمعوا حطباً جافاً وأشعلوا النار وانتظرنا أنا والسريعة وقد أحاط كلانا الآخر بذراعيه فى الأجمة وراقبنا وكانوا أحياناً يلقون على النار فروعاً خضراء ذات أوراق كثيرة فكان الدخان المتصاعد منها يزداد كثافة.

ورأيناهم متراجعين عن الشجرة فجأة ولكنهم لم يكونوا مسرعين السرعة الواجبة. وقفز العين الحمراء وهبط وسطهم وكان هائجاً هيجاناً مخيفاً يضرب بذراعيه الطويلتين يمنة ويسره وانتزع وجه أحدهم فعلاً من بين كتفيه بأصابعه المعقدة وبعضلاته الهائلة وعض عنق آخر فهشمها وتراجع أهل النار وهم يتصايحون صيحات وحشية عنيفة ثم اندفعوا نحوه. فأمسك عصا وأخذ يحطم بها الرؤوس وكأنها قشر بيض وكان أقوى من أن ينتظروا عليه واضطروا إلى التراجع ثانية وكانت هذه هى فرصته فأدار لهم ظهره وأسرع يجرى وهو يعوى غاضباً وأسرعت. وراءه بعض السهام ولكنه كان قد اختفى فى أجمة .

وزحفنا أنا والسريعة بهدوء مبتعدين ولكنا صادفنا أذى جماعة أخرى من رجال النار وطاردونا حتى دخلنا مستنقع التوت الأزرق ولكنا كنا نعرف طرق الاشجار وراء الارض الموحلة حيث لايستطيعون مطاردتنا على الأرض وهكذا هربنا . وخرجنا من الطرف الآخر الى شريط ضيق من الغابة يفصل مستنقع الازرق عن المستنقع الكبير الممتد غربا وهنا التقينا بمسترخى الاذن ولا أستطيع أن أتصور كيف نجا الا أن يكون قد نام الليلة الماضية فى الكهوف .

وكان من الممكن أن نبنى بيوتا لنا على الشجر فى هذا الشريط من الغابة

ونستقر لولا قيام أهل النار بعملية الإبادة التامة وبعد الظهر هرب ذو الوجه المشعر وزوجته من بين الأشجار شرقا ومرا بنا وذهبا لشأنهما هربا فى صمت وسرعة وملامح وجهيهما تنطق بالخوف وسمعنا صيحات وصراخ الصائدين آتية من الناحية التى جاءا منها كما سمعنا فى هذه الناحية أيضا صراخ أحد القوم . كان أهل النار قد وجدوا طريقهم عبر المستنقع .

ومضينا أنا والسريعة ومسترخي الأذن فى أعقاب ذى الوجه المشعر وزوجته وعندما بلغنا حافة المستنقع الكبير وقفنا إذ لم نكن نعرف طرقه فقد كان خارج أرضنا وكانت القبيلة تتحاشاه ، دائما لم يسبق لأحد دخوله أو العودة منه على الأقل إذا هو دخله وكان يمثل فى أذهننا الغموض والخوف . والمجهول المثير للرعب ووقفنا عند حافته ونحن خائفين واقتربت صيحات أهل النار ونظر كل منا الى الآخرين وجرى ذو الوجه المشعر فوق الوحل المهتز حتى بلغ بقعة أرض أكثر صلابة ويغطيها العشب الذى يصلح أن يكون مخبئا على بعد عشر ياردات ولم تتبعه زوجته . لقد حاولت ولكنها إنكمشت اذ خافت السطح الخداع وتكورت .

ولم تنتظرنى السريعة ولم تتوقف فى سيرها حتى جاوزت مكان ذى الوجه المشعر بمائة ياردة ووجدت مخبأ وفى الوقت الذى لحقت بها فيه انا ومسترخى الاذن ظهر أهل النار بين الاشجار فاندفعت زوجة ذى الوجه المشعر ورانا بعد ظهورهم بفزع الذعر . ولكنها كانت تجرى على غير هدى وبدون حذر فتهشم تحت قدميها غشاء سطح المستنقع واستدرنا وراقبنا ورأيناهم يصيبونها بالسهام وهى تغوص فى الوحل . وأخذت السهام تتساقط حولنا . وكان ذو الوجه المشعر قد لحق بنا ومضينا نحن الأربعة دون أن نعلم الى أين نحن ماضون وازددنا تعمقا فى المستنقع أكثر فأكثر .

الفصل الثامن عشر

ومعلوماتى عن تجولنا فى المستنقع الكبير غير واضحة . وعندما أستعيد الذكرى أجد الكثير من الانطباعات التى لا علاقة بين بعضها والبعض الآخر ولا أجد لقيمة الزمن وجودا وليست لدى أية فكرة عن مدى الوقت الذى قضيناه فى أرض المستنقع الفسيحة . وتتخذ ذكرياتى عما حدث شكل الكابوس دائما . وأدرك أنى ظللت أزمانا لا حصر لها يطاردنى خوف متغير الاشكال ويدفعنى الى التيه الذى لا آخر له فى بيداء مظلمة أرضها مشبعة بالماء حيث تهاجمنا الثعابين السامة وتزأر الحيوانات حولنا والطمى يهتز تحت أقدامنا ويمتص أعقابنا .

وأعرف أننا انحرفنا عن مسارنا مرات لا حصر لها بسبب الغدران والبحيرات والبحار والأودية . ثم هناك العواصف وارتفع الماء فوق مناطق شاسعة من الاراضى المنخفضة هناك فترات جوع وشقاء حين يحاصرنا ماء هذه الفياضانات العابرة أياما وأياما ونحن أسرى فوق الأشجار .

وفى ذهنى صورة واحدة قوية . فى هذه الصورة أشجار ضخمة حولنا ومن فوقها تتدلى خيوط سنجابية اللون من الطحلب بينما تزحف على جذوعها نباتات متسلقة جبارة كأنها حيات هائلة وتتلوى فى الهواء وهى متشابكة وكل ماحولنا وحل . وحلم شبع بالماء تخرج منه فقاقيع الهواء فيرتفع وينخفض . وكما عشرة وسط كل هذا ، عشرة نحفاء بائسين تبرز عظامنا من أديمنا المشدود ولم نغن أو نثرثر ، أو نضحك ولم نلعب إذ غلب القهر على أرواحنا التى كانت تتسم بالخفة والقوة وصدرت عنا أصوات الشكوى والمشاجرة ونظر بعضنا الى البعض الآخر وتجمعنا معا تجمع حفنة من النساء مرت بهم أهوال يوم القيامة.

ولا علاقة لهذا الحدث بالأحداث الأخرى التى وقعت فى المستنقع . ولا أعرف كيف استطعنا عبوره . ولكننا خرجنا أخيرا الى حيث تمتد سلسلة من التلال

المنخفضة حتى شاطىء النهر . والنهر نهرنا يخرج مثلما خرجنا من المستنقع . ووجدنا على الشاطىء الجنوبى حيث شق النهر طريقه فى التلال عدة كهوف فى الحجر الرملى ومن وراء ذلك كان المحيط يهدر عند ملتقى مائه بماء النهر عند مصبه وهنا استقر بنا المقام فى الكهوف مقرنا الدائم بجوار البحر .

ولم نكن كثيرين ومع مرور الزمن أخذت جماعات متزايدة من أهل القبيلة تظهر من وقت لآخر وقد جروا أنفسهم من المستنقعات فرادى أو اثنين أو ثلاثة وهم أقرب الى الموت منهم الى الحياة مجرد هياكل هائمة حتى أصبحنا اخيرا ثلاثين شخصا ولم يعد أحد يأتى من المستنقع ، ولم يكن العين الحمراء بيننا ولوحظ انه لم يبق على قيد الحياة أحد من الأطفال بعد تلك الرحلة المخيفة .

ولن أتحدث بالتفصيل عن السنوات التى عشناها بجوار البحر ولم يكن المقر سعيدا فالهواء بارد رطب ولم نكف عن السعال ونزلات البرد ولم نستطع العيش فى مثل هذه البيئة . صحيح أننا رزقنا أبناء ولكنهم لم يعيشوا طويلا بل كانوا يموتون مبكرين وأخذنا نموت بسرعة تفوق السرعة التى يولد بها الجدد وتناقص عددنا تناقصا مستمرا .

وعندئذ لم يكن التغيير الجوهرى فى طعامنا مفيدا لا وأصبحنا نعيش على القليل من الخضر والفكهة وأصبحنا كذلك من أكلة السمك . وكانت هناك أسماك بلح البحر وهو نوع من المحار وأذن البحر وهو الحلزون البحرى واللزيق وهو السمك الصدفى والجندفلى وأبو جلمبو الكبير الذى يقذفه المحيط على الشاطىء فى الجو العاصف . كما كنا نجد عدة أنواع من الأعشاب البحرية التى تصلح للطعام ولكن تغيير الطعام سبب لنا متاعب فى المعدة ولم يعرف أحدنا طريقا للبدانة كنا جميعا نحفاء . وقد فقد مسترخى الاذن حياته بسبب حلزون بحرى فقد أطبق هذا الحلزون البحرى على أصابعه اثناء الجزر ثم جاء المد وأغرقه ووجدنا جثته فى الصباح التالى فكانت وفاته درسا لنا فلم يطبق الحلزون على يد أحدنا بعد ذلك .

واستطعنا أنا والسريعة أن نربى طفلا ولدا واستطعنا على الأقل أن نربيه حتى بلغ من العمر عدة سنوات ولكنى واثق من أنه ماكان مستطيعا ان يبقى حيا فى ذلك المناخ الرهيب . وفى ذات يوم ظهر أهل النار ثانية وكانوا قد جاءوا عبر النهر لا على طوف بل فى قارب محفور فى جذع شجرة وكانوا ثلاثة يجدفون فيه

الفصل الثامن عشر

ومعلوماتى عن تجولنا فى المستنقع الكبير غير واضحة . وعندما أستعيد الذكرى أجد الكثير من الانطباعات التى لا علاقة بين بعضها والبعض الآخر ولا أجد لقيمة الزمن وجودا وليست لدى أية فكرة عن مدى الوقت الذى قضيناه فى أرض المستنقع الفسيحة . وتتخذ ذكرياتى عما حدث شكل الكابوس دائما . وأدرك أنى ظللت أزمانا لا حصر لها يطاردنى خوف متغير الاشكال ويدفعنى الى التيه الذى لا آخر له فى بيداء مظلمة أرضها مشبعة بالماء حيث تهاجمنا الثعابين السامة وتزأر الحيوانات حولنا والطمى يهتز تحت أقدامنا ويمتص أعقابنا .

وأعرف أننا انحرفنا عن مسارنا مرات لا حصر لها بسبب الغدران والبحيرات والبحار والأودية . ثم هناك العواصف وارتفع الماء فوق مناطق شاسعة من الاراضى المنخفضة هناك فترات جوع وشقاء حين يحاصرنا ماء هذه الفياضانات العابرة أياما وأياما ونحن أسرى فوق الأشجار .

وفى ذهنى صورة واحدة قوية . فى هذه الصورة أشجار ضخمة حولنا ومن فوقها تتدلى خيوط سنجابية اللون من الطحلب بينما تزحف على جذوعها نباتات متسلقة جبارة كأنها حيات هائلة وتتلوى فى الهواء وهى متشابكة وكل ماحولنا وحل . وحلم شبع بالماء تخرج منه فقاقيع الهواء فيرتفع وينخفض . وكما عشرة وسط كل هذا ، عشرة نحفاء بائسين تبرز عظامنا من أديمنا المشدود ولم نغن أو نثرثر ، أو نضحك ولم نلعب إذ غلب القهر على أرواحنا التى كانت تتسم بالخفة والقوة وصدرت عنا أصوات الشكوى والمشاجرة ونظر بعضنا الى البعض الآخر وتجمعنا معا تجمع حفنة من النساء مرت بهم أهوال يوم القيامة.

ولا علاقة لهذا الحدث بالأحداث الأخرى التى وقعت فى المستنقع . ولا أعرف كيف استطعنا عبوره . ولكننا خرجنا أخيرا الى حيث تمتد سلسلة من التلال

المنخفضة حتى شاطىء النهر . والنهر نهرنا يخرج مثلما خرجنا من المستنقع . ووجدنا على الشاطىء الجنوبى حيث شق النهر طريقه فى التلال عدة كهوف فى الحجر الرملى ومن وراء ذلك كان المحيط يهدر عند ملتقى مائه بماء النهر عند مصبه وهنا استقر بنا المقام فى الكهوف مقرنا الدائم بجوار البحر .

ولم نكن كثيرين ومع مرور الزمن أخذت جماعات متزايدة من أهل القبيلة تظهر من وقت لآخر وقد جروا أنفسهم من المستنقعات فرادى أو اثنين أو ثلاثة وهم أقرب الى الموت منهم الى الحياة مجرد هياكل هائمة حتى أصبحنا اخيرا ثلاثين شخصا ولم يعد أحد يأتى من المستنقع ، ولم يكن العين الحمراء بيننا ولوحظ انه لم يبق على قيد الحياة أحد من الأطفال بعد تلك الرحلة المخيفة .

ولن أتحدث بالتفصيل عن السنوات التى عشناها بجوار البحر ولم يكن المقر سعيدا فالهواء بارد رطب ولم نكف عن السعال ونزلات البرد ولم نستطع العيش فى مثل هذه البيئة . صحيح أننا رزقنا أبناء ولكنهم لم يعيشوا طويلا بل كانوا يموتون مبكرين وأخذنا نموت بسرعة تفوق السرعة التى يولد بها الجدد وتناقص عددنا تناقصا مستمرا .

وعندئذ لم يكن التغيير الجوهرى فى طعامنا مفيدا لا وأصبحنا نعيش على القليل من الخضر والفكهة وأصبحنا كذلك من أكلة السمك . وكانت هناك أسماك بلح البحر وهو نوع من المحار وأذن البحر وهو الحلزون البحرى واللزيق وهو السمك الصدفى والجندفلى وأبو جلمبو الكبير الذى يقذفه المحيط على الشاطىء فى الجو العاصف . كما كنا نجد عدة أنواع من الأعشاب البحرية التى تصلح للطعام ولكن تغيير الطعام سبب لنا متاعب فى المعدة ولم يعرف أحدنا طريقا للبدانة كنا جميعا نحفاء . وقد فقد مسترخى الاذن حياته بسبب حلزون بحرى فقد أطبق هذا الحلزون البحرى على أصابعه اثناء الجزر ثم جاء المد وأغرقه ووجدنا جثته فى الصباح التالى فكانت وفاته درسا لنا فلم يطبق الحلزون على يد أحدنا بعد ذلك .

واستطعنا أنا والسريعة أن نربى طفلا ولدا واستطعنا على الأقل أن نربيه حتى بلغ من العمر عدة سنوات ولكنى واثق من أنه ماكان مستطيعا ان يبقى حيا فى ذلك المناخ الرهيب . وفى ذات يوم ظهر أهل النار ثانية وكانوا قد جاءوا عبر النهر لا على طوف بل فى قارب محفور فى جذع شجرة وكانوا ثلاثة يجدفون فيه

وأحدهم هو الصياد العجوز النحيل الضئيل ورسوا على شاطئنا وأخذ يعرج على الرمل ويفحص كهوفنا .

وضموا بعد دقائق ولكن السريعة كانت خائفة أشد الخوف وكنا جميعا خائفين ولكن الخوف لم يصل بأحدنا مبلغ ما وصل إليه بها وأخذت تبكي وظلت قلقة طول الليل وفي الصباح حملت الطفل على ذراعيها ودفعتني بصيحاتها العالية وإشاراتها إلى رحلتنا الطويلة الثانية وهي تتقدمني . وخلفنا وراءنا في الكهوف ثمانية من القوم (كانوا هم كل ما تبقى من القبيلة) لا أمل لهم فمما لا شك فيه هو أنهم حتى إذا لم يعد أهل النار لابد أن يهلكوا فقد كان المناخ سيئا جدا هناك بجوار البحر اذ لم يكن تكوين أهل القبيلة يلائم حياة سكنى الساحل .

وووصلنا جنوبا نقضي أيامنا ندور فيها حول المستنقع الكبير ولكن لم نجرؤ ابدا على الدخول فيه وحدث ذات مرة أن رجعنا ناحية الغرب وعبرنا سلسلة من الجبال وهبطنا إلى الساحل . ولكن هذا المكان لم يكن ملائما لنا . لم تكن هناك أشجار – بل مساحة من الأرض كالحة تمتد إلى الماء وأمواج الشاطىء تهدر كالرعد وريح قوية يبدو أنها لا تكف عن الهبوب وعدنا عبر الجبال ونمضي شرقا وجنوبا حتى عدنا إلى مكاننا على مقربة من المستنقع .

وسرعان ما بلغنا أقصى الطرف الجنوبي من المستنقع ومضينا في سيرنا جنوبا وشرقا وكانت أرضا لطيفة فالهواء دافىء وعدنا إلى الغابة وبعد ذلك عبرنا سلسلة من التلال المنخفضة ورأينا أنفسنا في بلد غابات أفضل وكلما زاد توغلنا فيها وابتعادنا عن الساحل وجدنا الجو أكثر دفئا وظللنا نمضي ونمضي حتى بلغنا نهرا واسعا بدا مألوفا للسريعة ولابد أن تكون قد جاءت إلى هذا المكان أثناء غيابها عن القبيلة ذلك الغياب الذي استمر أربع سنوات وعبرنا هذا النهر فوق كتلة خشبية ورسونا على الشاطىء الآخر عند قاعدة جرف عال حيث وجدنا بيتنا الجديد – وهو كهف يصعب الوصول إليه لا تراه أية عين تنظر إليه من تحت .

وليس هناك ما يحكى فهنا عشنا أنا والسريعة وربينا أولادنا وهنا تنتهي ذكريات ولم نقم بأية هجرة أخرى قط ولا تتجاوز أحلامي مدة كهفنا العالي العسير المنال . ولابد أن يكون قد ولد هنا الطفل الذي ورث مادة أحلامي . وإذ بي أدخلت في كيانه كل انطباعات حياتي . أو حياة السن الكبيرة الذي هو نفسي الاخرى لا نفسي الحقيقية بل الذي هو عندي حقيقي لدرجة أني كثيرا ما أعجز

عن تحديد سني وقت أن عشت حياته وغالبا ما أتساءل عن هذه السلالة فأنا حديث عهد بالأحوال ومع ذلك فأنا السن الكبيرة البدائي لست رجلا . وفي مكان ما ومع تسلسل خط التناسل اندمج هذان الجزءان في شخصيتي المزدوجة ولا أعرف ما اذا كانت القبيلة قبل انتهائها في عملية تحولها إلى رجال ومن ناحية أخرى لا أعرف ماذا إذا كنت أنا وذاتي الأخرى قد مررنا بهذه العملية؟ ومن ناحية أخرى لا أعرف ما إذا كان أحد أقاربي قد اندمج في أهل النار وأصبح واحدا منهم وليس هناك من سبيل الى معرفة ذلك الا أن هناك شيئا واحدا مؤكدا هو أن السن الكبيرة طبع كل انطباعات حياته على تكوين مخ أحد ذريته وأنه طبعها على نحو ثابت راسخ بحيث لم تستطع أن تمحوها الاجيال المتداخلة العديدة .

وهناك شيء آخر يجب أن أتكلم عنه قبل أن أختم حديثي وهو حلم كثيرا ما أراه ومن ناحية الزمن لابد أن يكون الحدث الحقيقي قد وقع خلال الفترة التي عشت فيها في الكهف العالي البعيد المنال . وأذكرأني أوغلت في تجوالي في الغابة ناحية الشرق وهناك صادفت أفراد قبيلة من أهل الشجرة وقبعت في أجمة وراقبتهم وهم يلعبون كانوا يعقدون مجلسا للضحك يقفزون علوا وسفلا ويغنون غناء في صيحات جماعية بدائية .

وعلى حين فجأة كفوا عن ضوضائهم وعن قفزهم وانكمشوا في خوف وتلفتوا في لهفة تبحث أعينهم عن طريق للتراجع وعندئذ دخل العين الحمراء بينهم . وخاف الجميع ولكنه لم يحاول ايذاءهم فهو واحد منهم . وفي أعقابه امرأة ذات ساقين منحنيتين مخيفتين توازن نفسها بالاستناد الى مفاصل أصابع قدميها على الأرض من الناحيتين وهي من أهل الشجرة وآخر زوجات العين الحمراء . وجلس وسط الحلقة وأستطيع أن أراه الآن وأنا أكتب هذا مقطبا جبينه وقد التهبت عيناه وهو يحدق النظر حوله في أهل الشجرة المحيطين به وفيما هو يحدق النظر فيهم بساقه الرهيبة ويحك بطنه بإصبع قدمه المعوجة . إنه العين الحمراء المرتد الى أصله .

المؤلف



□ ولد الروائى الأمريكى «جاك لندن» عام ١٨٦٧ . وعمل فى شبابه بائع صحف وحمالا على عربات الثلج، ثم عمل فى تفريغ وتحميل المراكب، وبعدها اتجه للعمل فى السفن فى عام ١٨٩٤. وتعرض للسجن فى منطقة شلالات نياجرا لمدة ٣٠ يوما بتهمة التشرد، حيث تعرف هناك على الطبقات العاملة المسحوقة، ولمس ما تعانيه من استغلال.

وكان «جاك لندن» صورة حية لمعظم أبطال رواياته الذين لا يبقون على قيد الحياة إلا من خلال الانتصار فى صراع البقاء الضارى.

وعاش «جاك لندن» حياة صعبة مليئة بالمتاعب ونقل للقارئ الكثير من تلك التجارب فى أعماله الروائية والقصصية، فاتسمت أعماله بالقسوة والمرارة.. كذلك نجد فى رواياته تصويرا لأشكال متنوعة من الصراعات بمستواها البدائى احتوتها روايات أبطالها من الذئاب والحيوانات المتوحشة، بالإضافة إلى شخوص من الطبقات الفقيرة والكادحة فى محاولاتهم لتحقيق النجاح.

وفى عام ١٩١٦ توفى «جاك لندن» منتحرا، بعد أن ترك عشر روايات وثمانى عشرة مجموعة قصصية وثلاث مسرحيات وأكثر من مائة وخمسين مقالا وثمانية كتب عن المجتمع . ومن أشهر رواياته، رواية «الناب الأبيض» والتى صدرت ضمن سلسلة روايات الهلال عام ١٩٩٠، ورواية «القدم الحديدية» ورواية «ابن الذئب» و«نداء البداءة» و«ذئب البحر» و«قبل آدم»..

هذه الرواية

□ يعتبر النقاد رواية «قبل آدم» هى أول رواية بين أعمال الكاتب الأمريكى «جاك لندن» التى يمكن وصفها بالانتماء إلى أدب الخيال العلمى. ففى هذه الرواية، وعبر الأحلام، يتذكر رجل ينتمى إلى بداية القرن العشرين، أحداثا وقعت فى زمن ومكان آخرين، يتذكر حياة افترض وجودها مع فجر الزمن.

ويكشف لنا الراوى «بيج تووث» مدى وحشية وقسوة الحياة فيما قبل التاريخ، والحاجة إلى خوض معارك لا تنتهى من أجل البقاء، والخطر الدائم الذى تفرضه مطاردات الوحوش للحصول على غذائها، والأصعب التعرض لمطاردة «فايرمين» "Fire Men" ، وهم جنس من البشر أكثر تطورا من الجنس الذى انتمى له «بيج تووث»، وعرفوا كيف يشعلون النار ويستخدمون القوس والسهم فى الصيد والقتل.

وعبر الرواية، يقدم الكاتب كل ليلة حلما مختلفا يمثل حلقة فى حياة أسلافه. ويسعى الراوى إلى إعادة ترتيب هذه الحلقات / الأحلام ليقدم لنا سيرة أسلافه بأسلوب رومانسى لا يخلو من الإثارة والترقب.